لون هارب من قوس قزح

رواية

منى الشيمي



لونٌ هاربٌ من قوس قزح

رواية

منى الشيمي

(1)

ما زلتُ أرقد هنا، أعِي زمنَ اللحظة جيدًا، أرقب ما حدث، وما سوف يَحدث، أنتظرُ شروقَ الشمس؛ لتغربَ من جديد. مَسجونةٌ في قالب من القار الأسود[1]، مُحَنطةٌ يداي إلى قدمَيّ، ومدفونةٌ بعبثية في مكان رملي ما!

"أيتها القوة الكامنة في مكانٍ ما، امنحيني مقدارَ ذرةٍ منك؛ كي يعود لجسدي دِفؤهُ ولأطرافي الحياة، فُكّي لساني كي ينطلق لاهثًا، يَشرح لمَن حولي خَطَأً فَادِحًا أَلَمّ بي، لقد دُفِنتُ في المكان الخطأ، اتركوني لن أحاول العودةَ إلى حياتكم، لن أطلب شربةَ ماء أو لقيماتِ غِذاء، فقط سأنهَض، وأعدو إلى المكان العالق

1- القار الأسود: طبقة من القار استخدمت في تحنيط أجساد الفقراء، وهو تحنيط رديء، لا تفلت معه الجثة من التعفن!

بالجبل هناك، إنه لؤلؤة ضمن عقد اللآلئ الذي زيّن تاجَ الجبل، مقبرة الحاكم وزوجته الرئيسة عن شمالي، ومقابر إخوتِه عن يميني، أنا دُرّة التاج، أنا محبوبة الحاكم، إنه الخطأ الذي قادَني إلى هنا. صوتي الذي أُضجِرُ به مَن حولي، ليتَه يصل قويًا لآذان الأحياء، ليتَه يصل مستعطِفًا زوجي، كل ما أطلبه سيدي هو العفو، فهل نَضب مَعين عفوك، وقد نَقشتَ جدران المقبرة بأنك مَن يعفو عند المقدرة؟!"

منذ أيامٍ حينما هبّت رياح خماسينية، بعثرت الرمالَ المتكومة، فَتحَتْ كوةَ أملي للسماء، تخللت الرمال ذرات هواء لأول مرةٍ منذ وقت أستطيع أن أحصيه لو ركزتْ ذاكرتي مرة، لكن التركيز لإحصاء ذلك يَستعصِي عليّ الآن، كل ما أستطيع أن أفعلَه هو الانتظار.

تَكشّفت الرمالُ عن قدمَيّ، فهللتا للشمس التي حَجَبتني عنها الرمال، لم تكن الشمس بقادرةٍ على أن تنفخ فيهما مِن ألوهيتها

ليتحركا، تصورتُ لعدة أيام أنه ربما يأتي أحدُهم ويُخلّصني، لكن هذه الأمنية كانت صعبة المنال، على الرغم من ذلك ظل الأمل يرفرف على مخيلتي، إلى أن عادت الرياح الساكنة للتحرك، فعادت الرمال لتغطي أصابعي من جديد.

عادت أصابع قدمَيّ للاختفاء كُليةً في الصباح التالي، وعاد الأمل ليُقْبَر من جديد، لا أدري كَم من الوقت استغرقته ساكنة، لكن في هذه الأثناء تسمّعت أصواتًا مارة، ربما كانت أصواتَ مرتحِلين عن ضجيج الزمان والمكان، وربما أصوات مزيدٍ من الغزاة، فأصوات خيول هؤلاء وهؤلاء لا تختلف كثيرًا! لكن الأمل تَجَدد في اليوم التالي ثانية، مِن المرجَّح أن الوقت شتاء؛ لأن الأمطار تَسقط بشدة، أستطيع أن أستحضر منظر الأمطار وهي تصطدم بالأرض، وتعرف طريقَها إلى الجحور، ثم تستمر بإصرار، فتصنع الجحورُ قنواتٍ رفيعة كحيّاتٍ تَجري تجاه النهر.

جسدي المُغَطى بطبقة قار، المخبوء بعبثية، تساقطت عليه قطرة من ماء المطر، السكون الطويل أفقَدني القدرةَ على تحديد

المكان الحقيقي لسقوطها، على الرغم من تبَعثُري صارت كل حواسي متيقظة لأي بارقةِ أمل، تمنيت أن تصبح القَطرة سَيلًا جارفًا يَسحبني إلى السطح، وبعدَها إلى "حابي"• الحاني، فتتحول مُعَانَاتي إلى راحة أبدية!

أشرقتْ شمس ذاك الصباح، ومكان تساقُطِ القطرات صار نافذة لأشعة الشمس الواهنة، انتظرتُ أيامًا على أمل أن يكتشف وجودي أحدُهم، صرت أترقب حركة الطبيعة، وأعيد مطابقتها بأصواتها داخلي، ربما أستعيد قدرتي على التمييز، وأتبين في النهاية الأصواتَ البشرية! كان اليأس متسربًا إلى أعماقي كُليةً حينما تناهَت إلى سمْعي خطواتٌ تَعبُر بالقرب من مَدفني، صار جسدي في حالة ترقب، أشبَه بتلك التي يكتم فيها الشخص أنفاسَه، لكنه ترقبٌ مِن نوعٍ آخر يخص الموتى! سمعتُ أحدهم يؤكد وجود خبيئةٍ في المكان، وقَبل أن أسعد باستمرار امتلاك القدرة على التمييز والمعرفة تَساءلَ الآخَر:

- ما الدليل؟

•حابي: إله النيل: يصور على هيئة رجل ممتلئ، كناية عن الخير!

عاد الصوت الأول:

- المياه جميعها تنزلق إلى مكانٍ أشبَه بالسرداب أو البئر!
- ربما تكون أرضًا سبخة!
- وربما تكون لإحدى المومياوات الثرية فيكون للفقر نهاية!

أدركتُ أي مصيرٍ ينتظرني، كثيرًا ما كنت أرى الكلابَ تتنازع فيما بينها إحدى الجثث التي استخرَجَها اللصوص، وجرّدوها مما هو ثمين، وتركوها فيما بعدُ نَهبًا للذئاب، وكثيرًا ما دخلَ أحد الكلاب إلى الدرب، وهو قابضٌ على جزء من تلك الجثث، فتعقّبَه الصبية بالرجْم. لكن بقليل من الهدوء، ومقارَنة ذلك بما آل إليه حال جسدي بدت هذه الأفعال عاديةً ومقبولة بشكل ما!

أزال أحدُهم آخرَ طبقة من الرمال. تلقَّفتُهم بهدوء، بدأ الآخر في فك لفائف الكتّان المبتلة بفعل الأمطار، لم يلحَظ التعفن الموجود في أماكنَ متفرقةٍ من جسدي، نَهمُه الشديد لجذب الـ

"نب –خبر"• من أسفل اللفائف ألهَاهُ بشدة، كما استحوذَ على خاتم ذهبي صنَعَه لي الصائغ الخاص بالقصر:

- "لا، لا تأخذ مِني هذا الخاتم.. إنه دليل إمارتي"

تمنيت أن يتركَه لي، لكن!

لا أستطيع أن أصف بالتحديد الإحساسَ الذي مسّني حينما سُرق خاتم هوّيتي، صرت كالجثث الفقيرة الملقاة في مقابر العامة. أَخذَ اللصوصُ كل متعلقاتي، تمنيت أن تظل الكوة التي حفروها قائمة، لكنّ خوفَ أحدِهم من افتضاح الأمر جعله يهيل الرمالَ ثانية وبكثرة، فعاد قرص الشمس ليُحجَب من جديد، وعاد لصوتي صراخه، الذي- ربما- لا أُضجِر به أيًا مِمن حولي! تَسقط نظراتي على جسدي فأتعذب، لم أكن أدري هل صرت بمعزل عنه أم أنى ملتصقة به طالما تواجَد؟ تترَى أفكار لا أستطيع اختيار إحداها والاقتناع بها فتُظِلني الحَيرة... !! هل سأظل أتعذب إلى أن أفنَى؟ هل فَناء جسدي هو فَنائي؟ هل ثمة

•نب خبر: الجعران الذهبي الذي يوضع مكان القلب بعد نزعه في عمليه التحنيط.

حياة أخرى؟ لم تُفلِح تعاليم مدرِّسي القليلةُ في الطفولة لتبصيري، صار عليّ الاستمرار في التجربة حتى النهاية لأعي!

لم يكن من السهل ترويضُ نفسي على اليأس من جديد، كان لا بُدّ لها من المرور بمراحلَ متدرجة؛ لتصِل إلى مرحلة اليأس الكاملة، خاصة وأن اللصوص أهالوا كمياتٍ زائدةً من الرمال، تسربت قطرات من المطر عدة مرات، لكنها لم تستطع أن تحفر عميقًا. أدركتُ بعدها إلى أي مَدى صرتُ بالعمق!

يمرح الدود بتلذذٍ في جانب بطني أسفل اللفائف، أستطيع أن أحدد حجم التلف الذي أصابني بحركات الدود الدائمة النهِمة، أتألم وأتألم، أين مِني هذا الجسد البَضّ الذي لانت تفاصيله تحت ثوبٍ كتاني أبيضَ حينما تهاديت به مراتٍ في الدروب؟ وقد لانت معه جموع الشباب، وهُم يَحصدون القمحَ في البعيد، وكاهن المعبد الذي استطاع أن يخفي نظراتِ تيهِه بي بمحاولاته الاستغراق في الدعاء! كانت نظراتهم من النوع الذي يفجّر شيئًا بداخلي قبل أوانِه، ويصل به أحيانًا لمرحلة الفوران.

ضربَتْني أُمِّي في أحدِ الصباحات الربيعية لإصراري على ارتداء الثوب الذي كان للأخريات حُلمًا، لا أنكِر أنني حاولت مرارًا أن أدّخره، خاصةً وأنه كان حُلمي لأمد طويل، لكن وجود ثوب يبرز جَمالَ تكويني ولا ألبسه كانت فكرةً غَبية، كنت أحتال لألبسَه، مهما كلفني الأمر من مواجهات! وحينما وصل الثوب إلى منتصف عمره، كَفّت أمّي تمامًا عن نهرِها لي بشأنه، فصار يُعرَف بي، وأُعرَف به! على الرغم من ذلك ظلت أمّي تدبر وتحتال إلى أن وفرتْ لي ثوبًا آخر له الصدَى نفسه للمناسبات، إلى أن فاجَأتني به يومًا قبل الاحتفال الكبير بـ "حابى"، كان بروعة الثوب السابق نفسِه إضافةً إلى كونه جديدًا، استطعت به أن أنال إعجاب المعبد لدرجة جعلَتهم يُجمعِون على اختياري لأكون عروسَ النيل ذاك الموسم، ويمنحوني شرفَ إلقاء التعويذة التي يُعدّها الكهنةُ بكل أسرار اللغة؛ ليأتي الفيضان كما يتمنى الفلاحون.

لـم تكـن المهمـة تَشـغلني، ولكـن مـا شـغلَني المسـافةُ التـي سأسيرها أمام الجمهور، علـيّ استعراض جَمـالي أمـام الجميـع، تطويعه لأفكاري! ربما يتقدم لـي بعدَها أحدُ النبلاء طالبًا الزواجَ بـي، فالانتقال من الدروب الفقيرة إلـى أحياء النـبلاء كـان أملَ معظم الفتيات، لكن أفعالهن لتحقيق ذلك كانت متوقفة، ربما الاستسلام. وربما لأنهن على الرغم من جَمالهن، لم يَصِلن للمرحلة التي تُمكّنهن من إبرازه للناظرين. وربما البقاء على الحالة التي ولِدن بها قَدرُهُنّ! الفقر دومًا يُبقِي الجَمال مَنفيًا. لكنني فكرت بطريقة مغايرة، ربما كان هذا قدَري أيضًا! إنْ لم يتزوجني نبيلٌ قد أنال شرف العمل كممثلةٍ للإقليم؛ وهو عملٌ يبدو أرستقراطيًا: قامة ممشوقة ومرفوعة الرأس أمام الحاكم، نظراتي مصوّبة إليه مباشرة دون خجل الأنوثة الذي أمقتُه.

استطاع الثوب أن يحكم خطواتي فخرجتُ متزنة، أظهرتْ ثنياتُ الثوب نحافةَ الخصر، وانفرطت الثنيات عند الردفيْن، فظهر الامتلاء المستحَب لهذه المنطقة. أمّي أيضًا، أعدت لي باروكةً مَضفورة بعناية ومتوّجة بهريم مخروطي الشكل من

الدِهان المعطر، فما كدت أخطو عدة خطوات، على المَمْشَى – المُعَد سَلفًا والمُزين بالورد إلى النهر –حتى زايلَني الخوف، فسِرت مختالة.

ألقيتُ التعويذة التي أعطاها لي الكاهن مع تعويذتي الخاصة، التي سطرتُها على ورقة صغيرة بأمنيات ربما تتحقق، عدت أدراجي إلى المقصورة، وقد ساحت دِهان الهريم، فغَطى المكانَ أريجٌ فوّاح ملأني ثقة. تقدمتُ إلى الكاهن الأكبر الذي ربتَ على رأسي وبارَكني. انصرفتُ إلى مكاني وسط الفتيات برشاقة الخطوات السابقة نفسها ورِقتها، فكنت أَشبَه بالفراشة التي تجيد الرقص حول الضوءِ دونما احتراق. ما كدت أجلس حتى تعالت أصوات الفتيات يُغَنين على قهقهة الصنوج بالخلف:

"هو النيل الذي يفيض على البلد.
فتمتلئ مخازن الحبوب، وتزدحم المستودعات،
وتتوافر الحاجات.
إنه يضع نفسه في خدمه الأماني، فيجيبها مِن
غير أن يُنقِص منها

شيئا، لا يَدفع له الناس ضريبة، ولا يقدمون له
الهدايا، ولا
يفتنونه بالكلمات ذات الأسرار الخفية"

كان الاندماج مع الأغنية أمرًا صعبًا، بدا الأمر فوق مقدرتي، على الرغم من ذلك حاولت الاحتفاظَ بابتسامةٍ خِلتُها جذابة، ولكن عقلي المحتفِظ بتعويذته الخاصة أعادها علىّ مِرارًا:

"أيها الإله الحاني، يا من تخصب الأرض بكل
قوة
الذكور، فتنجب السنابل، امنحني ما أريد، وإنك
لمُدرِك ما أريد"

حينما تمتمت شفتاي بهذه الكلمات، شعرت كما لو كنت أتخبط بدهاليز المعبد المعتمة، التي دومًا ما يتحدث عنها بالخوف العامة. المَحظور عليهم الوصول إليها، والتي اكتفوا بالنوم في ظل أسوارها الخارجية أثناءَ قيظ الظهيرة، وفى فترات

الراحة التي يمنحها الكاهن الأكبر للعاملين والفلاحين في وقف المعبد، كانت هي الرهبة التي نفثت في شراييني من ريحها، فأبعدت ذهني غصبًا عن مكان الاحتفال.

(2)

أعلَمُ أنه النهار، بمقدور الشمس أن تنفذ إلى باطن الأرض، بحرارتها وحميميتِها، لكن ما الفائدة لمُقعَدةٍ مِثلي مكبّلة بالأغلال؟ الموتُ حياة من نوعٍ آخر، حياة خاصة بالموتَى -إن جاز ذلك- حياة نجترّ فيها ذكرياتِنا إلى ما لا نهاية. لم تزايلني مقدرتي في شرْحِ حالتي، ولكنى لا أجزم بأنها ستلازمني إذا ما بدأتُ في شرحها لعالَم الأحياء، هل ما زال صوتي قادرًا على الوصول إلى سَمعِهم؟! لم أفقِد القدرةَ على تذكّر الماضي القريب والبعيد على السواء، ولكن الزمن التالي لموتي صار كما لو كان المستقبَلَ

بالنسبة للأحياء! لا أقدر على تخمينِه أبدًا! هل هي إحدى حالات التدرجِ التي سأصِل بعدَها إلى مرحلة الفَناء الكامل؟!

تَخيّرتُ جانبَ النهر الحاني مكانًا ألعب فيه أنا وأترابي، نحفر قناة صغيرة ننقل إليها المياه من النهر بأكفِّنا الصغيرة، ونغضب من الأرض التي تسبقنا فتبتلعها، ثم ننسى الغضب بكل عنفوان الطفولة ونفرح بالطين فنشكّل أحلامَنا فتياتٍ وفِتيانًا يتمازحون، أو نلعب بـ "الحذروف"*. أحيانًا أخرى تُشكّل كلا مِنا رضيعًا تقرّبُه إلى صدرها الصغير، ونتشابك في مجموعات صغيرة نلعب بعرائسنا الخشبية، أو التي نصنعها بأنفسِنا من القماش العزيز والقَش. حقيقة، فكرة الثوب في هذا الوقت لم تكن قد اختمرت في نفسي، فجميع أترابي عرَايَا، أعضاؤهن تُهَلل للشمس، ولم يكن شيء ما بجسدي يُقلِقني كما أقلقني فيما بعد.

---

* الحذروف: لعبة تسمى النحلة الآن، مازالت تستخدم في القرى، مخروطية الشكل تدور بالدفع حول محورها بسرعة!

كنت وأترابي ننمو ببطء وبغفوة مِنا تحت الشمس، نجتمع فيعلو ضجيجنا، ونتشابك فتخرج إحدى الأمهات تزعق فيتشتت الجمع ويتلاشى، أعود وأترابي إلى الدروب وقد أعدتْ أمّي غداءَ أخي، أذهب به في الطريق الطويل، حيث الشمس تجلد بسياطها الأرض، فتحترق وتُلهِب قدمي، فأتعجب!

- كيف للإله "رع"* أن يكون حانيًا، وقدمَاي متورمتانِ هكَذا؟!

اتسمت خطواتي بالبطء قُربَ الوصول، كان لا بُدّ من العروجِ إلى المرتفع حيث مقبرةِ الحاكم التي يقوم أخي بنقشِها، لكي تجعل طريقه إلى الفردوس مفروشًا بالأبسطَة، فيسجل أنه أكرمَ العامة، وأهدَى إليهم الفطائر في الأعياد، وخزّنَ القمحَ للفقراء في السنين العجاف، ولم ينظر لامرأة إلا وكانت مِن خاصته. لا أنكِر أن هذه النقوش ونقوش المعبد أيضًا بهرتني وقتذاك، وألبستُ صاحِبَها بنفسي مَلبَسًا وقورًا.

*الإله رع: إله الدولة القديمة الرسمي، إله الشمس.

كان لا بُدّ من التلكؤ لجمع الأحجار التي باحتكاكها تُطلِق شَررًا، للاستعانة بها في اللعب، وإيقاد النار لإنضاج طعامِنا، حينما تتلبسنا أرواح الأمهات، تسرق إحدانا قليلا من الدقيق ندمجه مع المياه، فيصير عجينًا ننضجه بإلقائه في النيران، حينما وصلتُ إلى أخي في المقبرة، صفعَني بقوة لتأخري، تركتْ يدُه ألسنةً من اللهب على وجهي حينًا. تناوَلَ ما بيدي، وجلس يأكل مما أتاح لي التجول في ردهات المقبرة.

كان مَنظر الحاكم مَهيبًا وهو واقِف في واجهة الداخل بحجمٍ يفوق أحجام العامة حولَه، يرتدي مِئزرًا قصيرًا مُمنطَقًا بحزامٍ مربوط ومُدَلى من الأمام، تَظهر رشاقته بوضوح، تتقدم إحدى قدميه قليلاً عن الأخرى لتلقّي القرابين من ممثلات الإقليم اللائي ظهرنَ أمامَه بقامات طبيعية ممشوقة، يرتدين الثياب الكتانية. أبدع النقاشون في نقشِهن وهُنّ يُقَدمن القرابين للحاكم: واحدة تحمل الأرغفة التي يَدخل في خبزها العسل، والأرغفة المعجونة

باللبن، وتلك تحمل جِرارَ الجعةِ المغلقة المختومة، وفى المقدمة إحدى ممثلات الإقليم وقد قدمت زهرةَ لوتس زرقاءَ يانعة.

اختلفت مَناظر الحاكم ما بين مُتَلَقٍّ للقرابين ومستَمتِع مع زوجته وأولاده في رحلة صيد، وقعتْ نظراتي على فتياتِه الصغيرات عند قدميه وقد ارتدين الثيابَ الطويلة الضيقة، تَشف عن سيقانهن وقد ضفرن شعورَهن، يلعبن الكرةَ التي استوقفتني طويلا، ولم أدرِ مِن النقوش تفاصيلَ اللعب بها، أمّا باقي المَناظر تجاه اليمين فكانت مرسومةً فقط، لم تقربها يدُ النحات، ولم تكن الألوان قد استُخدِمت في أيٍ منها بعد.

(3)

ما جَدوى الملل من الرقاد؟ صرنا متلازميْن على مدار زمن طويل، استطعت أن أقهرَه حينًا بذكرياتي، واستطاع أن يقهرَني أحيانًا بسكونه الدائم، حفيفُ الرياح ودبيب خطوات المارة بالقرب صارا مؤنِسَيْن لوحدتي، صار الجسد إلى ذبولِه وجفافه ببطء، وبفعل عواملِ الطبيعة العادية، صرت أَشبَه بعود الحطب الجاف، بعد أن قضى الدود تمامًا على الحياة بجسدي ثم غادَرَه باحثًا عن مصدرٍ آخَر ليحيا، فغادَرني شيء كان يَشغلني. استطاع الرقادُ المتواصل أن يُجبِرني على التذكُّرِ، واستطاع هذا القرار المَكين أن يَنفيَني عن أحداث جديدة تؤرق بداخلي الأفكار، ويلازمني القلق دونما معرفةٍ لأسبابه الحقيقية.

ما زالت بقايا الطفولة، لم يَستدر الجسد بعد، فقط شعيرات تنبت تثير همْس العجائز الجالسات في ظلال الدرب، يَغزلن ذكرياتِهن حديثًا طويلاً وممتِعًا، تجلس جَدّتي معهن بوجهٍ صار صغيرًا دون كلمة، التجاعيدُ تعيد رسْم ملامح وجهها، ولفترة محدودة تبدأ بعدَها في الزيادة لتعيد تشكيلَ الملامح مرةً أخرى، ربما لم يُفارِقها إحساسُ المرأة الأول، لكن الخبرة أضافت له الكثير! هل يَبدأ موت الإنسان تدريجيًا أثناء حياته؟ دون أن يلحظ هو أو الآخرون؟ لا أعرف، كل ما أعرفه أنني استطعت أن أحرّكِ فيهن شيئًا تلك الظهيرة، وأنا أمرُقُ بينهن متجهةً إلى داخل المنزل، لم أستطع التوقف لسماع ما تَمتمتْ به شفاههن، فقط خمّنتُه.

واجَهَني الهواء البارد المنبعِث من ظلال المنزل، استندتُ إلى حائطٍ قريب من الباب المؤدي إلى الحقول المزروعة بالقمح في هذا الوقت من السنَة، لم يكن القمح قد ارتفع كثيرًا، لكنه بَشَّر بالوفرة، فانعكس ذلك على قلوب العامة. ربما لهذا قررتْ أمّي أن تزوِج أخي في الموسم نفسِه، لينعم هو وزوجته بالرخاء الذي

سوف يعمّ عامًا كامًلا، لم تغفل عند اختيارها العروس أن تكون متمتعة بالصحة؛ لتساعدها في أعمال المنزل: إدارة الرحَى لطحن الحبوب، وخبز الأرغفة، وعصر الكروم، وعمل النبيذ لليالي الباردة، وغزل الكتّان الذي يعطيه الحاكم نظيرَ عملِ أخي في المقبرة، وحياكته مآزرَ له، أمّا إحضار المياه من النهر وغسْل الأواني هناك، فتلك مهمة تمنيتُ أن تَظل موكَلَةً إليّ!

لم تبحث أمّي طويلاً عنها، زخرَ الدربُ بالفتيات اللاتي خَطونَ لِسِن الزواج، انتقلتْ العروس من منزلها إلى منزلنا بمبارَكة الربة "حتحور*" ودعواتها لهما بالإنجاب، كنت أطيل النظرَ للعروس، صار بها شيء تعالَت به عن باقي الفتيات، الزواج يُطمئِن قلبَ الفتاة، يرفعها درجات. أراها وهي تُمَشط شَعرها بالمشط الخشبي الملون المنحوت على شكل "باستت" *القطة، ترتفع يدُها إلى شَعرها تُمَشطه وحينما أختفي عن الناظرين في السطح، أمَشط شَعري بيدي، وأتمايل، يميل شعري

* حتحور: ربة حامية للزوجات والأجنة!

* باستت: ربة الدلال، وكانت أدوات الزينة تشكل بهيئتها.

معي قليلاً فأفرح، أسْمَع نداء أمّي، فأضفره سريعًا، وأنزل السلالم قفزًا، تثقلني بأعباء المنزل المتعددة، تنفث في جسدي الصغير ما تركَه أخي من فراغٍ في نفْسِها، أتحمّل صاغرة، وأبصِر أعماقي وهي تتلون بالحزن جزءًا يَلِي الآخر.

نَدُرتْ فترات خروجي من المنزل إلا قليلاً، أُغافِلهم وأستجيب لنداء الصغيرات، فنذهب إلى مزرعة كروم الحاكم، نتلمس بعضًا منه، القردُ يعصر الكرومَ بدهسه إياها في قدور عظيمة ذات فتَحات، يهرب السائل من الفتحات إلى قدور أخرى، نلقى الأحجارَ على القرد، فيلقي لنا بحبات الكروم، نتلقّفها سُعداءَ إلى أن يشعر بوجودنا الحارس، فيتعقبنا، يزداد ضجيجنا وضحكاتنا، كأننا نطلب المطاردةَ أكثرَ مما نطلب الكروم.

استطعت أنا والصبايا أن نغوص في زبد الطين بأقدامنا دونما انزلاق، عبَرنا الأرض بعد انحسار الفيضان عنها بفرح، هَلل الجميعُ بحق عندما عبَرتُ ولم أسقط. اقتطعت جزءًا من الطين، ودمجته بحبوب القمح، ثم بدأنا المسابقةَ في عصر ذاك اليوم،

استطعت أن أشكل "أوزوريس"[*] بمنتهى الدقة، عدت للمنزل متسللةً لأخفيه خلْف صومعة الغلال بسطح المنزل، فاجَأتني زوجة أخي بالتقريع والصفع لهروبي من أعمال المنزل الكثيرة، كنت قد تجرأت قليلاً لمواجهة الضرب، قلت لها:

- أنتِ هنا لتساعدي أمّي في أعمال المنزل.

أجابت وقد تَنمّرتْ:

- أنا هنا زوجة أخيك فقط.

عدت بصوتي وقد تراجعتْ جرأتي:

- ولكنكِ يجب أن تعملي.

عادت بصوتها مؤكدة:

- أنا هنا زوجة أخيك فقط، وأعمالُ المنزل لك ولأمِّك إن أردتما أن تَعيشا بسلام.

تماديتُ في غمرها بنظراتي النارية، لكن النظرات انطفأت على جسدها، وحينما ظهر أخي عند الباب كانت نظرات انتصارِها تغمر المكان، أعماقي الملتهبة كانت قد انطفأتْ حينما أينعت

[*] أوزوريس: إله الموتى، والبعث، يعيش تحت الأرض.

البذور، ونمَتْ على جسد التمثال والذي سأتفوق به على جميع الصبايا.

راقبتُ التمثال أربعةَ أيامٍ كاملة، تأملت النبات وهو يشق جسدَه، ويتحرر كأنى أتحرر معه من كل قيد، نال التمثال إعجابَ الصبايا، وتفوقتُ عليهن جميعًا، أحسستُ وقتذاك أنني تفوقت على زوجة أخي، ربما لأنني شعرت بأنني مقهورةٌ كما الأرض المحروقة، وأنني أنتظر شيئًا ما يُخلّصني، كما الماء بالنسبة للأرض، وربما نفسي وما تُطلِقه من تصرفاتٍ لا أفهمها أحيانًا.

(4)

عادت الأيام أكثرَ طولاً بعد الاحتفال، صرت أستكشِف ما حولي بعين أُخرى، أضِيق بصديقاتي العاريات، بجدران المنزل الطينية، والحصير الشائك على المقاعد والأرضية، أهرب دومًا إلى حُجرة السطح أستأنِس بالوحدة، أمارس ما أتمناه في ساحة خيالي الواسعة، ابتعدت تمامًا عن زوجة أخي، لم تَعُد تُريحني مضايقتها، وإثارة لفحة النار داخلَها، أحسّتِ الآن بصيرورة المنزل لها، وأني كأحد ثوابته غير المزعجة. آثرتْ أمّي السلامة أيضًا ومالت لِصَفِّها مخافة عقابِها، كثيرًا ما نصحتني بالانصياع لِما تطلبه مني من أعمال المنزل، لكن تنفيذ أوامرها كان يعني إعلان الهزيمة! على الرغم من قبول عقلي للنتيجة، لم أستطع التنفيذ، أصبحا- عقلي وجسمي- منفصليْن تمامًا، وعندما

اتخذت أمّي مجلسَها بالطابق الأرضي، صرت وحيدة تمامًا في حجرة السطح المهدّمة. آملت بعد الاحتفال أن يجيء أحد النبلاء ويتزوجني، أو أن أعمل كممثلةٍ للإقليم عند الحاكم، ولكن آمالي تسرّبت كرملٍ من غربال، صرت ساخطة على هؤلاء وهؤلاء، إحساسٌ مغاير كُليّة لِما أحسست به هناك عند النهر؛ تملكني وقتَها الإحساس وكأني إحدى الأميرات ترفل في حُلّة مَلَكية، وتنظر لحاشيتها مِن عَلٍ.

انزاحت آلام الليل عن نهار خِلتُه عاديًا، بدأت الحركة تدب في المنزل، أخي وهو يعد الألوانَ للانتهاء من المقبرة العالقة بالجبل، تذكرت أيامَ بدأ في نقشِها، كنت صغيرة، وكان لليوم عندي وقتُه فقط، دومًا ما كنت أذهب بغدائه هناك، أستطلِع المناظر المنقوشة على الحوائط فتفتح باب التأمل على مصراعيه، لكن الطَّرَقات المتتالية انتشلتني من أفكاري، بابنا لا يطرقه أحد في هذا الوقت من الصباح!! هذا ما طرأ على ذهني، وجعل الدم يكتسح شراييني كفيضان، جريت تجاهَ الحائط الشبكي المصنوع من الآجر، فهو كما جُهّز لينفذ منه الضوء إلى

الحجرة، جُهّز أيضًا كي نستطلع الطارق، وأحايين كثيرة كي نتلصص على الجيران! ازداد اندفاع الدم أكثر لدرجة جعلتني للوهلة الأولى لا أرى شيئًا، برهة واستجمَعَني مِن شتاتي الشابُ حليق الرأس، كان يرتدي مئزرًا قصيرًا، يبدو وضّاء الوجه، وهيبةٌ تنبعِث من أجزاء جسمِه، وتنساب مع حديثه الهادئ، لم يكن ليعوق صوتَه شيء إلى أذُني! حضورُه في هذا الوقت من الصباح نبَّهَ حواسي لإحدى الخواطر التي تدارستُها ونفسي في السابق، ولكني لم أتوقف عندها، وتطلعتُ إلى ما هو أكبر، كان الشاب يريدني! هذا ما قاله بالضبط!

تَنازعتني الأفكار في المسافة بين تواجدي ومكانِه، نزلت درجات السلم مستندةً للحائط مهابةَ السقوط، مرتدية مئزرًا محزومًا عند الخصر، مصنوعًا من البردي، بينما نهداي منفلِتان نافِران.

التحقت بالعمل في الـ "بر- نثر"* بتكليف من الكاهن الأكبر كإحدى المُحافِظات على الأدوات التي تخدم إقامة الشعائر،

---

* بر–نثر: بيت الإله، المعبد.

وكان مَن جاءني أحد المتدربين على الخدمة بالمعبد، ومِن الدارسين والمُرتّلين لتلك العلوم بـ "دار الحياة"* ! هكذا، اختارَني الكاهن مع مَن اختارهن لهذه المهمة، أنقذني مِن حالتي دون أن يدري! شرحَ لنا في الصباح الأول شروطَ القيام بهذا العمل من طهارة، وأمانة، وقَدْر من العلم نحرص أن ننمّيه كما قال باستمرارية، ألقَى كلمته علينا جميعًا في بهو المعبد الفسيح المزدان بصفيْن من الأعمدة العالية المتوجة بزهرة اللوتس المتفتحة، تصفحتْ شمس الصباح وجوهَنا، وتّصفحنا بدورنا بعضَنا، لم تكن الوجوه غريبة عني، كنا نلتقي في ملعبنا، أو في مدرسة المعبد في السابق.

انفلَتَ زمام تفكيري بعيدًا عن بهو الاجتماع لأتذكر النظرةَ التي رشقتُ بها زوجةَ أخي عند خروجي، كنت أعلم مدى وقْعِها عليها، وأعلم أيضًا أنه لا بُد للقوة أن تسكن مكامن النفس؛ كي أستطيع أن أنسج نظرةً كتلك، على الرغم من أنني لم أكن

* دار الحياة: المكتبة الملحقة بالمعبد

راضية تمامًا عن قوتي المزعومة، كنت بيني وبين نفسي أعرف أنني مجرد خادِمة، وإنْ أُطلِق عليها خادمة الإله!

أعادَني الضجيج من أفكاري، لم أدرِك ماذا يحدث ثوانٍ، فركّزت مع الكاهن الأكبر حينما وزع الأعمال على الأمكنة، صار لي حجرةٌ صغيرةِ من الحجرات المتعددة الزاخرة بالأدوات الخاصة بالطقوس أُشرِف عليها. كانت حياة جديدة تمامًا، يتطلب عملي تنطيف الأواني وتلميعها؛ كي يستخدمها الكهنة في طقوسهم اليومية، التي تبدأ عند مَطلع الفَجر، تبدأ قَبلها خطواتي في دق الأرض من المنزل باتجاه المعبد. بعدَها، أُخرِج الأواني وأنظّفها بعناية، أثناء ذلك يتطهر الكهنة في حجراتهم، ويذهب الكاهن الأكبر إلى المسلة القائمة في الفناء المكشوف لاستقبال الإله بالشعائر وتلاوة ترنيمة الصباح التي تعلو وتعلو في أرجاء المعبد الفسيح، ويرددها الكهنة وراءه.

"سلامًا "رع" عندما تشرق في الأفق الشرقي

للسماء

يا سيد السماء ومَلك الآلهة، يا ذا الأسماء
الكثيرة
يا جميل الطلعة، إنك أول الوجود، يا مَن يُعبد
ويُذكر اسمك في البلاد
يا سيد القاعات العظمى في المعابد، يا مَن أقام
قانونه في القُطريْن"

يرتد الصوت صدىً لأذُنَيّ بعدما يصطدم بجدران البهو العالية، عند ذلك يحمل الخدم الأواني ويضعون بها طعام الإفطار لتمثال الإلهة "حتحور" الذي تَزيَّن، وارتدى ملابسه، وتَعطر، تنتهي مهمتي ومهمة الباقين، فنستريح في فناء المعبد الخارجي تحت شمس الشتاء الدافئة نتسامر، أو يَدخل بعضٌ مِنا إلى "دار الحياة"، ممن اختارهم الكاهن الأكبر لاجتهادهم وإعدادهم لوظيفة أعلى، نترك الطعام أمام التمثال يتناول منه ما يريد إلى أن يوزّع الكاهن باقيَه علينا.

لم يكن العمل شاقًا في الظهيرة، كنت أعِد المَباخر فقط قبل الذهاب بها للتمثال في الهيكل، أو إلى الفناء المكشوف حيث المسلة، أدعو لنفسي بما هو أفضل، علَّ دعواتي تتسلق دخانَ البخور في رحلة عروجِه، وعندما صرّح لي الكاهن الأكبر بالعودة إلى المنزل بعد الظهيرة، على أن أعود للعمل قبل الغروب، فّضلت البقاء في المعبد، متعللةً برغبتي في مزيد من التفاني في الخدمة! كنت أقضي الوقت في الاستماع حينًا إلى حديث الكاهن المرتّل وفيض نِعَم الإله على عباده، وحينًا آخرَ تجذبني نغمات حجرة الموسيقى، فأتقوقع جالسةً قريبة منها.

أذابت جلساتي بالقرب من حجرة الموسيقى الملحقة بالمعبد جمودَ نفسي، يدرب الكاهن-المخصص لذلك- الفتياتِ على عزف الآلات المختلفة، فتنبعث موسيقى حالِمة، تتسرب من مسام جِلدي بعذوبة، وتترقرق في جدول روحي، أترك لنفسي العنان، فترتوي منها بكل قوة الظمأ إليها. في إحدى المرات، اتخذ مجلسي عمقًا أكبرَ في حجرة الموسيقى، فقَدتُ سيطرتي على يدي فامتدت إلى الهَارْب فانبعث صوت الأوتار كشالٍ

حريري يُهفهِفه النسيم، أصابَني الفزع، تحولت عيني إلى وجه الكاهن تستطلع ملامحه، كانت ملامحه مشجّعة، اقتربَ قائلا:

- ملامحك جميلة أيتها الفتاة.

ابتسمت وأومأت، فعاد وقال:

- أيعجبك الهارْب؟

قلت:

- تنبعث منه نغمات حزينة، وتَنكأ الجراح!

فقال:

- الموسيقى يا ابنتي شافية كالدواء، تُنسي الهموم، وتُسكِن النفس بروح السكينة.

زفرت أنفاسي، اعتَبَرها ردًا، فعاد قائلا:

- هل تريدين التدريب معنا؟

انطلقتْ كل ملامحي تجيب:

- ليتك تجدني مناسبة!

قال بابتسامة رقراقة:

- تستطيعين التدريب معنا في أوقات راحتك، فتَسطرين بذلك رأينا فيكِ.

وأكمل

– إنْ رأي الناسِ فيك يا ابنتي مِن فعلك، فاجعلي آراءهم ساطِعة!

قال كلامه،ّ استدار، وتتبعته نظراتي إلى أن ذهب، وظلّت كلمة ابنتي عالقة بنفسي وقتًا.

فيما بعد، جاءتني المُشرِفة على تدريب الفتيات، تناولتْ يدي؛ لأتعرف على الآلات المختلفة، نَصحَتني باختيار "الصلاصل"*التي لا تحتاج إلا إلى الانتظام في رنّاتها، على أن تكون عيناي على عازفات الهارْب؛ تلمسًا للتقليد. استغرقني العمل كُليةً في المعبد، تَنازَعني بقوة مع أفكاري وانتصَر، صرت أسير في دروب المعبد دون رهبة، انطبعت الردهات الداخلية والدهاليز بمخيلتي، لم يعد الانطباع عنها مبهمًا بعد أن اكتشفت دهاليز الرقي فيه، وخطوت فيه أولى خطواتي.

---

* الصلاصل: الشخاليل: وهي أداة للإنشاد للربة حتحور.

كَستْ ظلال جدران المعبد معظمَ أرضيته، وسبحَ المعبد في انشغاله بإعداد طقوس العشاء، تناغمت الظلال مع أشعة الشمس المنكسرة على الأرضية إلى أن تداخلا وذابا، وعَم الظلام، أشعل العاملون الرائحون والغادون المَسارج، بدأتُ في إعداد عُدتي تأهبًا لساعة العمل القصوَى والأخيرة لهذا اليوم، تَقَدم الكاهن الأكبر لناووس التمثال يستكشف بهاءه، بعدها سار العمل بجدية لنهايته دون تقصير من أحدنا، وزع الكاهن علينا طعامَنا، ثم ولّينا وجوهَنا شطر الباب في انفراجة المساء إلى دُورِنا. انزاح ستار انشغالي وأنا أخطو خارج المعبد عن خيالات أمّي وأخي وزوجتِه، وهُم يتحلقون حول عشائهم دون انتظاري، فتضايقت، وعندما وصلت، تخطيت عتبة المنزل، من الباب المطِل على زراعات الكتّان المترامية، فوجدتهم يلتفّون حول طعامهم دون انتظاري بالفعل فتأكّد ضيقي، لم أمكث دقيقة، ارتقيتُ الدرَج لأعلى حيث حجرتي، دون أن أنبس بكلمة، لكن التساؤلات كانت ترتع بعنفٍ داخلي، كيف لأمّي أن تنصاع لِما تُؤمَر؟!، وكيف لأخي أن يشعر تجاه أولاده بالأبوة، ولا يشعر تجاهي بمسئولية الأخوّة؟ مع هذا ظلت الأيام تتسابق، تغزل

نفْسَ تكرارية الأيام السابقة وملَلها، إلا مِن أوقات جميلة كنت فيها أجِدّ لدراسة التعامل مع أوتار الهارْب، وأمارِس بانتظام تذكير الخرز بقيده داخل المصلصلة، فتخرج نغماته حادةً منتظمة.

(5)

نَبشَ ونبشَ، إلى أن وصلَ إليّ، يدٌ مدرَّبَة بعناية، تترفق بي كأني طفل صغير، تحمل أجزاء مِني إلى سلة الخوص الموضوعة إلى جانب الحفرة بأعلى. الشمسُ قوية وناصعة، بعد أن كانت تصل إليّ واهِنةً متأوهة، الحمارُ النظيف يقف بالقرب، ينفث أنفاسه دوائرَ غبارٍ لا تلبث أن تعود للأرض، مفروشٌ ظهره بخرجٍ ذي جيوب كثيرة، قليلٌ من الوقت وكانت اليد قد جمعت من أجزائي الكثير، صرت كومة في السلة هناك، حمَلني على ظهر حماره الهادئ، وضعَني بين ساقيه مخافةَ السقوط، اتخذت مكاني، كومة من عظام جافة مغطاةٍ بطبقة من قار أسود! في الطريق قابلتني دروب القرية، كانت أذرع اللعب

الممتدة في الصغر، وترابها الذي خضّبَ قدمي، وروائحها الخاصة والنفاذة كأنها البهارات...

"ترفق بي أيها الشيخ، مُرّ على تلك البقعة من الأرض التي اقتطعتُ منها جزءًا للاحتفال بأوزويس قديمًا، تمَهلْ ولا تقِف، أتمنى أن تمتلئ عيني بصور الماضي البعيد، ربما جزء منها عالِق هناك، ربما حين تراني الأرض تتذكر أنى بعض طينِها"

ليتَه يسمعني، يعلو صوتي ويعلو:

"هنا مَدرَستي القديمة باقية كشاهد قبر لأفعالي، أين شقفتي تلك التي سطرت عليها اسمي حينما تعلّمتُه؟ "ميريت" ترى هل بقي على الأرض أحد يَذكرني؟ هل تجتمع أرواحهم على صراخي؟"

"تمهَلْ أيها الشيخ، هنا قُربَ النهر الحاني، حقل ملعبي مع الصغيرات، أين نداؤهن؟ كيف أستجمِع أصواتهن المبعثرةَ في الهواء، فأعيدَ تركيبها، وإطلاقها مرةً أخرى قوية مجلجِلة؟!"

"لا، لا تعرجْ من هذا الطريق، تمهَلْ!"

أمَا وقد عرجتَ إلى بِركة الماء قُربَ المنازل، حيث الكتّان الراقد في الماء، وأمّي وهي تستعجل المحاق، نذهب معًا وقد برز نهداي، واستدار الجسد قليلاً، تَحتثي على السير، وحينما نفعل تسطر خطواتنا سِجلاً حالِكًا.

- كيف لنا بالسرقة يا أمّي لو افتُضِح أمرنا؟!
- اصمتي، ألم تكن فكرة حياكة الثوب فكرتَك؟
- نَعم، ولكن السرقة...

قاطعني صوتها محذّرًا:

- قلت لك اصمتي، أمَا وقد استدار جسمك؛ تحولت عيون الفتيان إليه!

اتسعت ارتعاشات يدي لتشمل جسمي كله، وقلت:

- تراجعت الآن، فأنا قليلة الخروج من المنزل.
- لكنى لا أريد لك البقاء به، خروجك سوف يتيح لأحدهم رؤيتَك، فيتقدم ويتزوجك.
- لكنها السرقة!

أجابت بحدة:

- بل الستر!

رغم ردها الحاد عاودتُ الحديث:

- ليتنا نعود يا أمّي.

ردتْ بالحدة السابقة نفسِها، وقد علا صوتها يَنهرني:

- قلت لكِ اصمتي!

صمَتُّ، ولكن قلقي وجد له منافذ أخرى؛ فارتعشت يداي، صارت خطواتي ثقيلة حتى بِركة المياه، استوقفتني أمّي بإشارةٍ من يدها، بدأتْ في الانحدار مع الأرض للمياه، رغم ستار الليل المسدَل بقوة لم تَهربْ أيٌ من المَشاهد، انطبعت في مخيلتي كنقشٍ على حَجر: وقفت أمّي عند حافة البِركة النائمة، وقد ظهرت صورتها على صفحة المياه شاهِدَ عيانٍ لِما تفعله، هربت

تلك الصورة حينما بدأت أمّي في سَحْب حزم الكتان الراقدة، كأنها ترفض دور الشاهِد، ناولتني إياها، وسَحبت لها أخرى، ثم عاوَدنا السيرَ باتجاه المنزل.

استطاعت أمّي إخفاءَ حزمَتَي الكتّان في الحجرة المهدّمة بالسطح، في الصباح أحضرتْ قوالب الآجُر فرممتْ حائطنا الشبكي ليحجب سرنا جيدًا عن الجيران، أمّا زوجة أخي فلم تهتم بما نفعله بأعلى، طالما أننا نفسِح لها مجالاً لتملّك الدور الأرضي. كما استعاضت عن نقع الكتّان برشِّه بالماء، رَصت عيدان الكتّان بطول أرضية الحجرة، وحَرصت على إبقائه ليّنًا رطبًا، حتى تتآكل قشرته الخارجية تمامًا. كان للمحاق يومٌ وينير السماءَ الهلالُ ثم القمر، وكان لا بُد لي وأمّي من رحلة أخرى، أحمل فيها قلبي الصغير على كفي كلما سقطَ وتهاوَى خوفًا.

لمحتُ ارتعاشة يدها بلحْظي، ولكن لساني لم يجرؤ على مكاشفتها بقلقي مجددًا، فقط تذكرتُ حديثها في الليلة السابقة:

– خروجك سوف يتيح لكِ الزواج، ولي التخلص مِنك.

فآثرتُ الصمت، لكني لم أستطع مطاردة الأفكار طويلاً، أبي الذي ذهب شمالاً ولم يَعُد، وأمّي وهي تعاني لتوفر لنا قوتَ اليوم بالكاد، وأخي الذي يجرب يدَه الكبيرة في جسدي النحيل.

ابتعدتُ عن منازلِ القريةِ قليلا، ولكن عبقها عالِقٌ بالهواء، لمحت الجبلَ يتهادَى في البعيد بشموخ، إنه مكاني، عرِّجْ بي أيها الشيخ إلى مستقَري هناك، حيث المقبرة الرائعة التي تتوسط مقابر الأثرياء! أنها تَخُصني، أنا التي أمرت بنحتها ونقشها، وجلبت لأثاثها خشبَ الأرْز من فينيقيا البعيدة، أنا التي استقدمت الصنّاع المَهرة من العاصمة في الشمال، وحددت لهم مكانها لتكون درة تاجِ الجبل، تستطيع أيها الشيخ التأكدَ من ذلك بتأمل مَناظر جدرانها، لقد أمرتهم فصوّروني أثناء رحلات صيدي لأحراش الفيوم الجميلة، وصوّروني وأنا أُحصِي ثروتي، وأعد حيواناتي وأتذوق ألبانَها. هناك على الجدار الغربي ستجدني وأنا أصفّف شَعري ضفائر جميلة، وأرسم الكحلَ حول عيني، هناك نقشت بالكلمات أني الأميرةُ الآمِرة، الحكيمة الحاكمة، المتربعة بثقة في قلب زوجي حاكم الإقليم، ليت اللصوصَ تركوا لي خاتم

إمارتي، فتتعرف على هويتي وتنزلني منازل الإمارة، أيتها القوة الكامنة امنحيني قدْرًا ضئيلاً أُبَصّر به الشيخ، امنحيني جلاء صوتك؛ لأحدّثه، لتعود إليّ مكانتي، ويعود إليّ ثرائي الذي حشدتُه لنفسي كي يسبقني إلى دار الأبدية.

لم يَصِل للشيخ أيّ مِن حديثي، كل ما جنيتُه كان مزيدًا من اليأس، عدت لانتبِاهي مع توقف الشيخ عند بناية تختلف عن منازلنا، لكنها على مشارف قريتنا، ما زالت السلة بيده، وما زلت أنا بالسلة، رُكْن الحجرة المعتمة قليلاً كان مستقري، أهذا هو الشيء الجلل الذي أنتظره؟ لا، ربما يأتي غدًا أو بعد غد، لم يَعد ملل اليوم بجوار ملل سنوات وسنوات ألمًا، لم يكن ملل انتظار ثوبي مللا عند مقارنته بملل السنوات السابقة، وأمّي وهي تَصحبني مرتعشة إلى البِركة التي لا قمر فيها، أنتظِر في القُرب، وتذهب وحيدة، تعلو على خوفها وتعلو، فتشكل صلابتها ملامح وجهها جافةً وقاسية، نحمل أحزمة الكتّان المبتل من البِركة ونعود، نرفع الكتّان الذي زالت عنه قشرته الخارجية وظهر أسفلها الغزل، نفرش الآخر الجاف مكانَه، ونرشه بالماء،

نرقب نظرات الجيران علَّ أحدَهم اكتشف أمرنا، نثير الحديثَ عن كتّان الحاكم الراقد هناك بالبِركة أحيانًا، ربما اكتشفوا سرقة بعضٍ منه وبدأوا في البحث عن الجُنَاة! نَقتل بكل السبل الرهبةَ بداخلنا، ونسير بخُطَى ثابتةٍ نحو الجمود.

- بقيَ حزمتان فقط، زيارة أخيرة ونستكمل ثوبَك.

قالتها أمّي وهي تفرش الكتّان الذي حملناه الليلة، تبتسِم فتظهر تجاعيدها حول فمِها جلية، قلت:

- كفَى يا أمّي، فليكن الثوب قصيرًا.
- ثوب قصير عمل عظيم ناقِص.
- لكنه يكفينا شر المغامرة.
- تريدين لساقيكِ أن تَظهرا.
- لا.
- كل ما بداخلك يدور، يمر عليّ وأعلمه أولا "ميريت".
- لا، صدقيني، تعلمين أنى أكره العُري.
- ولكنك تريدينه قصيرًا! يتمنى الفتى لو يرى ما يُخفيه الثوب الطويل فيفكر فيكِ أكثر ويتمنى منكِ أكثر.
- أكره التفكيرَ بهذه الطريقة.

– إنها طريقة كل الأزمنة، أدرِك ما لا يدركه عقلكِ الصغير.

لم أجِب، كنت أمقتها، وأمقت تلك الطريقة، أين النار وهذه الحجرة تحرق ما فيها وأستريح، قلت ذلك بلساني، لكن في سريرتي تلهفتُ جدًا للصباح الذي سوف يأتي، ويعكس فيه ثوبي الكتّاني الأبيض ضوءَ الشمس!

لم تكن سرقة الكتّان بالعمل الصعب إذا قورنت بمواجهة الناس به، هذا ما كنت أعتقده، لكن اعتقادي تَهَشم بعد أن خرجتْ أمّي في الصباح لجَدّتي وهي تبتهِل للشمس الدافئة، كوّمتْ أمامها من نسيج الكتّان ما أثار همس العجائز الجالسات جوارَها، احتالت أمّي التي نالت من تدريب الجمود الكفاية، كي تُقنِعهن بأنها إحدى الهِبات السخية من زوجة حاكم الإقليم. قالت كي تسد الطريق عليهن، ولا يذهبن للبحث عن نصيبهن، إنها وُهِبت الكمية وانتهى الأمر، كنت أتأملها وهي تقف أمامهن بثقةٍ تشرح ما قالته مستعينةً بحركة يديها وجسمها وضحكاتها المرِحة، لم ترتعش، لم تُتَهتِه، لم يَطرف لها جفن! وكانت هذه المواجهة

بمثابة الاختبار الأكثر قسوةً لها، كي تتأكد بشكل نهائي بعد ذلك من قدراتِها!

ثبّتتْ أمّي عصوين في الأرض لفّتْ عليهما بدايات من ألياف الكتّان الناعمة، بَنَتْ جَدتي عليهما بناءها من النسيج الذي يومًا وراء يوم كان في طريقه للاكتمال. أمّا جَدّتي، فقد بدأ تيبس يديها يزول تدريجيًا، أثبتتْ لأترابها بعد فترة قصيرة أنها المتقدّمة عليهن دائمًا، في السابق عندما كانت صبية، وفى هذا الوقت أيضًا بعد أن حفرت السنوات أخاديدَ وِجنيتيها

اتخذتُ مجلسي في الصباح التالي عند بوابة المنزل المرتفعة قليلاً، كنت أرى زوجة أخي وهي ترطب جسدَها بالدهون المعطّرة في هذا الوقت من الصباح؛ تلمسًا للنعومة التي دائمًا ما يَذكرها لها زوجها، وجودُها أعاق إحساسي بالطمأنينة؛ لأنها لم تقتنع بالقصة التي اقتنَع بها- على مضض- الجيران، ظَل فضولها ينضح مع نظراتها أيامًا، ولكنها كانت قانعة تمامًا بتقوقُعِي على نفسي، وصمْتِ أمّي، وهروبِنا لحجرة السطح دائمًا،

ربما زادت من نظراتها الفضولية حينما أدركتْ هروبنا. لكن نظراتي إلى جَدتي في الدرب وهي تَغزل بمهارة، ومراقبة استطالة الثوب هوَّنَا من أي مخاوف.

فاقت جَدتي تصوراتِنا فانتهت من نسج خيوط الكتّان جميعها، كان لا بُد من الانتظار أيامًا طويلة؛ كي نستكمل لها سرقةَ آخر حِزمتيْن، توقّف العمل على ذلك المنوال المنصوب هناك، عللت أمّي أسبابَ هذا التوقف باعتلال يد الجَدة، ربما لم يهتم الجيران بالتوقف، ولكن أمّي بحثت عن سبب لذلك، وأعلنَته لتهدئ من توتر نفسها قليلاً.

أيقظَتني أمّي في غفلة المساء الكحلاء، سِرت نصفَ يقِظةٍ وراءها، أُقلِق بقدمَيّ سطحَ الأرض الساكن، وصلنا إلى البِركة، فأعادت عليّ أوامرها بالانتظار، نزلتْ مع هبوط الأرض، تناولت بيدها حزمتيْن من الكتّان، وصعدت، كان توترنا أقلَّ من ذي قبل؛ لتعوّدِنا على ممارسة الفعلة بكل تفاصيلها، ناولَتني إحدى الحزمتيْن، فحمَلتها، هَمَمنا بالسير، خرجَ من الأرض الرجُل–

ضخم الجثة – المكلَّف بحراسة الكتّان. صرختُ مِن هول المفاجَأة، وربما لم أصرخ تحت تهديده بافتضاح أمرِنا ومعاقبتنا، تخيلتُ انطلاق صرختي فقط! وقف أمامَنا لا يتكلم، تَبادلَ مع أمّي النظر فقط، ثم وجدتها تسير أمامَه إلي الخُص القائم بالقرب، الذي يقيه برْدَ الساعات الأخيرة من الليل، وقَبل أن تختفي بالداخل، أمرتني بالمكوث مكاني، ومعي الحِزمتان.

كَم مِن الوقت مَر، وأمِّي هناك؟ أنظر إلى الحزمتين، إلى نفسي، وإلى الخُص! تخترق عيناي الظلمةَ وتتحول إلى دوائرَ مفرغةٍ إلى ما لا نهاية! تساءلتُ والقلَق ينهشني، وبرودةٌ تغزو أجزاء جسدي العاري. لم أدْرِ ما اللحظة في ذلك الوقت! لم يكن لها وقتها المعتاد، القصير، أبدًا! إلى أن عادت مهوّشة الشَّعر، وقدماها زاحفتان، ثم ظهر وراءها الحارس، كعملاق لا حد لطولِه وعرضِه، يحجب الرؤى خلفَه، ثم سَحب لنا حزمة كتّان ثالثة، اقترب وحمَلها على كتف أمّي دون حديث، وعاوَدنا السيرَ صامتتيْن كأن هولا عظيمًا انهمر علينا باتجاه المنزل.

لم أَلُمْها، حاولتُ إسقاط ما حدث من ذاكرتي في تلك الليلة، باستثناء اكتمال الكتّان اللازم لإنهاء الثوب، حاولت كثيرًا لكن علاقتي معها لم تَعُد كسابق عهدها منذ ذلك الوقت، لم نعد لذِكر ما حدث مرة، لكنني لم أكن لأتفهم ما قامتْ به من تضحية، ولم تلتقِ نظراتنا فيما بعد إلا لتؤكد ذلك الشرخَ الهائل الذي قام بيننا!

كنت أجلِس في حجرة السطح أرقب جَدتي مِن خلف فتحات الجدار وهي تنسج نهاياتِ قصتنا المُخجِلة، على الرغم من ذلك لم يَقِلّ فرحي بثوبي قَط، أمّا العجائز بجوارها فكُنّ يتبعنَها بنظرات لا مبالية حينًا وحاسدةٍ حينًا آخَر.

(6)

يُظلِم ركن الحجرة وينير، يسود الظلام ويَعُم الضوء الخافِت الذي تسمح بعبوره النوافذ، تهدأ الأقدام وتشتدّ، وأنا ما زلت بركن الحجرة كَمًّا مهملاً، تتساقط ذرات الأتربة برتابة على كومة عظامي بالسلة، وتتحول تدريجيًا إلى طبقةٍ تَكسوني.

أسمَعُهم وهُم يتناقشون ويحللون قضاياهم، والشيخ يرأسهم ويبجّلونه، ظَل الحال على هذا المنوال فترةً طويلة، صار لمكاني الجديد صفات القبر، العزلة والتأمل، أصرخ حينًا، يعلو صوتي فلا يثير صخَبي تساؤلاتِهم، اجتمعوا في ميعادهم هذا اليوم،

تَصدّر الشيخ المجلسَ وتَحَّلق حوله الفتية يستمعون له، كانت فرصة لي وهذا الجمع، بدأ صوتي يعلو ويعلو، يذكّرهم بمكانتي، ويُبصّرهم بمَن أنا، أنا درة التاج، زوجة حاكم الإقليم المدللة، أنا ساكنة القصر، المُطلة مِن عَلٍ، أنا صاحبة المقبرة في تاج الجبل، تستطيعون أن تفتحوها، أن تكتشفوا أنها فارغة، أن تقرأوا الأسطر على جدرانها ! إنها لي، إنه مكاني، أنا الـ "نبت – حاسوت"• وراعية الفقراء، المُهدِية لهم أثوابَ الكتّان الناصع، فقط اسمَعوني، قليلاً من الاستجابة، لا أطلب منكم الكثير، كل ما أرجوه هو حمْلي، ودفني فى مكاني الذي استهلَكَ السنواتِ الكثيرة لإعدادِه.

لم يُعِرني أيّ منهم الانتباه، كنت أعلم ذلك، ولكنه الأمل الذي دومًا ما يقود خطواتي ويشكلّها، وعندما كنت على شَفا الاقتناع بنصيبي في خدمة المعبد وطقوس الإله، برقَ الأمل كوميضٍ في شراييني، كشلالٍ يكتسح بقوة كل ما تَكَلس من اقتناع بالقليل،

•السيدة المبجلة.

تَسلّط الأملُ على كومة الأفكار الراقدة هناك، فأظهرَها، وكان عليّ أن أختار منها؛ لأصِل إلى ما أتمناه، وتتسابق إليه أترابي.

عرَفتْ دروبُ المعبد الداخلية خطواتي جيدًا، صرت أفرغ من طقوس الخدمة اليومية، وبعدَها تتلقفني دنيا الموسيقى بالمعبد، فأنغمس فيها، تُرعِش يداي أوتارَ الهارْب بثقة، فتَخرج أنغامه شجية، أستمِع إلى المدرّبة فأصير لها التلميذةَ النجيبة، ولنصائح الكاهن المشرِف فأنال إعجابَه، ويستمع الكهنة المرتّلون لألحاني فأستأثِر على قلوبهم.

تتسرب أنغامي الشجية إلى خارج جدران حجرة الموسيقى، وحينما أفرغ من درسي الذي انتظَم، أَخرج فأجده بانتظاري، الشاب الذي تتبعتُ خطواتِه برهبة عند قدومي للمعبد أول مرة، كان هادئًا، يتسرب كبرياؤه من جميع حركاته، وتنبعث منه رائحة النظافة الدافئة، يستطيع التحكم في تصرفاته فتَخرج متزنةً، وحينما تلتقي نظراتنا يَفقِد القدرة على التعبير تمامًا، فيتلعثم.

اكتفيتُ منه بهذا التلعثم الواضح في البداية، كنت مدرِكةً أنني طالما شجّعته سيتغير، لكني لم أبُدِ له التشجيع أبدًا، فاتخذ اهتمامُه مجالاً آخر، كان يَحثني على التقدم في دروس الهارْب، دائمًا ما كان يقول لي إن الهارْب- أخيرًا- وجد الأصابعَ الذكية. أبتسِم، أهرب إلى حجرتي المخصصة، يطير قلبي فرحًا، وتتضح من عيني النظراتُ الخبيثة، وأشكر للجدران إخفاءَها.

أَخرجُ مِن المعبد عند انتهاء طقوسه الليلية، بعد أن يدخل الإله ناووسه، يسود الهدوءُ المكان، يُقسّم علينا أحد الكهنة الطعامَ المتبقي، أضعه في السلة التي خصصتها لذلك وأعود، يَسكن دروبَ القرية الهدوءُ بعدما انحسر العائدون عنها لمنازلهم. أجِده جواري، يتعلّل بالظلام لمصاحبتي في رحلة العودة، خوفًا من الذئاب واللصوص، خاصةً وأن السلة التي أحملها تجذب برائحتها أنوفَهم، ينتابني الإحساس المرهف ذاتُه، لكن وجهي يظل على جموده، نتبادل الحديث الذي يَقرُب من الهمس حينًا، يُبهِرني باطلاعِه وسعة عِلمِه، ومجالستِه للفائف البردي ساعاتٍ طوالا دون ملل، تَقِل المسافة الممتدة بين المعبد ومنزلنا بسحر

حديثِه، نسير في هالةٍ مضيئة مصدرُها ذلك الإحساس الذي يدب في أوصالي كأنه الحياة، ثم، يتركني عند بابنا المطِل على الزروعِ، لتظل رائحته الخاصة جدًا بأنفي وقتًا طويلا.

كانت للأيام الأحداثُ اليومية نفسها، أَدخلُ من عتبة المنزل إلى عالَمٍ مغاير كليّا لِما أراه في المعبد، وأمّي وقد اتخذت ملامح جَدتي الراحلةِ جالسةٌ وقد أحاطت بيديها ساقَيها، ودفنتْ رأسها بينهما، أمامَها وعاء عشائها فارغ، تنتظر مني أن أعبّ من سلّتي وأملأه، وأخي وزوجته وأولاده في حجرة مُنارةٍ بسراج مهتز متحلقون حول عشائهم. أَمْلأ وعاءَ أمّي طعامًا، وألقي لأولاد أخي بالباقي، أصعد إلى حجرتي بالسطح، لم تترك الأفكار أيةَ شهيةٍ لتناول الطعام، صرت أحيا بقليل من الطعام، وكثيرٍ من الآمال تلك الأيام!

لكن الأيام ظلت على منوالِها لا جديد فيها إلا تنامِي إحساسي تجاه "مو ـ سا" . أمّا هو فكان ينسج إحساسه بي خيوطًا من المسئولية والمودة الظاهرة، كان طبيعيًا جدًا أن يُترجِم

أحاسيسه على الورق طالما يُتقِن لغةَ الكتابة، وأنا أجيد القراءة، لذا حينما أعطاني ورقة مطوية بعناية ومختومة بختمِه ذاتَ نهارٍ وأنا أعبر إحدى ردهات المعبد، لم تَبْدُ على ملامحي الدهشة بل تركتُ لفرحتي عنانَها فطارت مُحلّقةً حولي كالفراشات، وتربعتُ في ظل الحائط أقرأ ما سَطرَه لي.

أستطيع أن أذكر ما كَتب، لقد كان مِن الرهافة بحيث جعلني لا أنساه أبدًا، وكان مِن دقة الكتابة وجَمالها ما جعلَها في مخيلتي إلى الأبد، كنت أرددها على مسامعي حينما أكون منفردة بنفسي، وكلما اجتمعت بالآخرين، تَعزف يداي الهارْب، وتُتَمتِم شفتاي بأنشودته على سمْعي فقط.

وجدت نفسي أرددها على نغمات الهارْب يومًا:

"أيتها الفتاة التي تسير في إثرْكِ الطيور المغردة

أيتها الفتاة التي تَنتصب بهامتها كشجرة الورد

ألقي إليّ مِن لحظك نظرةً تحييني

ألقي إليّ موعدًا يُدنيني

إنها القُبلة منك

هي التي يحيا لها قلبي

فإنْ أنا ظفرت بها

فليكتب الإله أن تكوني لي إلى الأبد

أيتها الحبيبة: إليك أُفضِي بذات نفسي

إن الأمنية التي يخفق لها قلبي

هي أن أصبِح قوّامًا على شؤونك

وربًا لدارِك

وأن تستند ذراعكِ على ذراعي"

لم تكن كلماته كالحَطب إذا ما احترق ارْمَدَّ، كانت كلماته بداخلي جَمرًا متصلاً يطلب المزيد، كنت متعطشةً لمشاعره، أريد البقاء دومًا في مهب نسماته! تَخرج حبات العرق على جبيني وعنقي، تبدو رغبتي لسماع كلماته تلهفًا صامتًا، كيف وصمْتي له حديث؟! أدرَكَ مشاعري فحَث صمْتي على الحديث أكثر، ازدادت فترات صمتِنا أثناء العودة، كأنها حديث متفّق عليه! واتَته الجرأة مرة، فلمسَ يدي؛ طلبًا لحمْل السلة، راودتني جرأته

نفسُها، فلم أسحبْ يدي، صارت يدي أسفل، ويدُه الناعمة تحتضنها، وتعويذة هدوئه تَسري بأوصالي، عند جدار المنزل أسندت ظهري للحائط، فصرت في مواجهته تمامًا وضوءُ البدر ينعكس على وجهي ويُظهِر بوضوح ارتعاشاتِ شفتي، أسدلت جفوني برقة نسيمِ الربيع، رغم ذلك ظللت أراه وهامته التي تعلو هامتي ببوصات، ووِجنتاه لامعتان، وعيناه اللتان تحتفظان ببراءة الطفولة!

هل مَسّ شفتَيّ؟ هل لم يمسسهما؟ حدّثتُ نفسي، لم أدرِ حقيقة ما حدث، فقد وصلتْ ارتجافات أصابعي حتى شملتني كُلّي، فغِبت عن وعيي وأفكاري المرهقة، وعندما فتحت عيني، كانت رأسي مستندة على صدرِه، احتواني كطفلةٍ مدللة، كان لعناقه سِحرٌ خاص لم تدركه مِن قبل موسوعة أحاسيسي.

ظهرتْ على أمّي سمات غير مطمئنة تنبئ بانفجار نفسِها، عند عودتي كنت أراها متقوقعة في مكانها نفسِه الذي تركتها فيه

قَبل خروجي، لم تَبرحه! تتحدث لأشباح ذكرياتها بهدوء، أقتربُ منها، وأتحدث إليها برقةٍ مفتعَلة:

- ما بكِ يا أمّي؟

لا تُعيرني انتباهًا، لكنها تُعيره كُليةً لشخص ما تراه أمامَها قائلة:

- تركتَ لي المسئوليةَ كاملة والآن تحاسبني! و"رع" إنك لمُخطِئ، إن "رع " لمُخطِئ أيضًا، فهو لم يَمُد لي مِن أذرعِ المساعدة ذراعًا، بل لم يحمّلني بطاقةٍ من طاقات التحمّل، تساعدني على أن أصبر على ما بَلانـي.

أبتسِم، أمدّ يدي أربت على كتفيها علَّهَا تهدأ، وأقول:

- مع مَن تتحدثين؟

تعود لشرودها برهة، ثم لحديثِها ونفسِها وتقول:

- إن كل ما أعطيتَه لي أخذتَ ثمنَه، لم تكن أفعالك لوجه الإله، مِن ناحيتي لم يكن عبثَ نسوة، فقط من أجل الأجر!

توجستُ خوفًا من حديثها، كِلتُ لها من الحنان ربما تعود لرُشدِها، هدأتْ قليلاً، أطعمتها فشملَها الهدوء، حتى نامت مكانَها، لكن الهدوء لم يجد طريقه لقلبي في أيه أمسيةٍ تالية.

أثَرتْ حالتها مع أخي وزوجته، فلاذًا بالصمت الذي أكد لي أن حالتها تلك بدأت منذ فترة، وحالة التجاهل المتبادَلة بيني وبينهما لم تَسمح بإخباري.

كان بالمعبد حركةٌ شاملة هذا الصباح، أَعلَن الكاهن المشرِف عن بدء أعياد الربيع وإقامة الاحتفالات التي سوف يَحضرها الحاكم، عندما سمعتُ كلمة الحاكم، راودني أملي القديم بأن أصبِح من الأميرات، فقط على حاكم الإقليم أن يراني.

المزيد من التشجيع حَظيتُ به من " مو- سا"، حَثّني على زيادة دروس الهارْب، صار يقوم بأعمالي في غفلةٍ من عيون الباقين، لأتفرغ كُليةً للتدريب. لم يكن يدرِك نواياي بصدق، وهذه نعمة من "رع"، أن تظل النوايا طيَّ الكتمان، اندفعَ في تشجيعه؛ لينالَ رضاي، لم أكن بالسذاجة التي تجعلني أضيع الفرصةَ من يدي، توارت مشاعري تجاهَه وحَل محلها شيء غامِض لا أعرفه، صار يصحو مبكرًا جدًا، ويتسلل لحجرة الأدوات، يعمل بجدية، إلى أن تنضح الأواني بلمعانها، ويعيد العملَ ذاتَه في

المساء، فوْرَ انتهاء الطقوس، وقيامِه برحلة توصيلي التي ربما يقوم بكل ذلك من أجلِها، بعدَها يعود للمعبد، دون كَلل، أرقبه بدهشةٍ وأتساءل:

- هل حُبّه يستطيع أن يهوّن عليه القيامَ بالأعمال المُهِينة؟ وهو الكاهن المبجّل، وابن الأغنياء!؟ وهل سيستمِر لو رآه الناس يقوم بما يقوم به؟

كانت هذه الأفكار وغيرها تمر بتفكيري وتفِر، ولكن الثابت بها هو البحث عن جسر العبور من المرحلة المُهِينة إلى مرحلة أخرى أسكن فيها القصرَ المشيد هناك على ضفة النهر، والمسكون دائمًا بعبق الربيع.

عندما صار هذيانُ أمّي صراخًا يَسمعه الجيران إذا اندلع، أفضت بأسرارِها بعدما انقطع لسانها من وتد الصمت، صارت أشباحها مرئية تمامًا، وأخي الذي عَلِم كل شيء لم يغفر لها سيئاتِها، وجَدتُه في أحد الأيام وقد كوّمَ الكثيرَ من ليف النخل، جلس وقد أولاني ظهْرَه، يجدل الليف حبالاً وينفث فيها غضبَه، جدلَ الحبالَ حبلاً واحدًا غليظًا، ربَطَه بوتد دَقه بأرضية

حجرته، كنت أرقبه بخوف الطفولة الأول منتظِرةً أن يُفصِح عما بداخله، ولكنه ظَل على غِلظتِه، جَر أمّي من قدميها، وربطَها بطرف الحبل الحُر، خرجَ من الحجرةِ وصراخ أمّي يعلو وراءه، لَملمَ أولاده وزوجتَه وصعد ليسكن حجرةَ السطح.

قضيت الليلةَ في ركن حجرةِ أخي، أمّي تنام على الأرضية، جوارَ أسرارها التي فاضت منها وتعفنت كجثةٍ على الأرضية، جاءتني فكرة أن أتحدث معها، فأسمع ما سَمعه أخي، وما سوف يستمع إليه منها الناس مستقبَلا، سألتها عن أبي، حدّثتها برقةٍ علّها تَسكُن إليّ، لكنها كانت منشغلة عني بآخرين، خرج صوتها عاليًا مَبحوحًا:

– ابتعِد عني، لقد كرهت أفعالك، كنت مجبرةً عليها كي أنال منك حزم الكتّان، تمنيت أن أزوّج البنت، فأفرغ للسفر بحثًا عمن تركني وحيدةً، وترك أطفالاً جياعًا بحثًا عن مَلذاتِه، وذلك الحَجر المدبّب الذي عاهدتُ "رع " أن أغمدَه في قلبه، لأنزعه فأطعمه للكلاب، فلا ينال شرفَ

البعث أبدًا. فغرتُ فمِي مندهشة، لم أحثها على المواصلة، ولكنها استمرت في حديثها:

– ابتعِد.

قلت لها اصمتي فتمادت:

– ابتعِد.

احتضنتُها وظلت يداي تربت على ظهرِها فترةً إلى أن تسلل إليها النوم، وظللت طيلةَ الليلة تؤرقني الأفكار، أُمَنّي نفسي بالفرار من هذا الواقع! وعندما خرجتُ في اليوم التالي استقبَلَني صباحٌ مُحبِط لم أتوقعه، قررت أن أحدّث الكاهن بشأن رغبتي في الإقامة الكاملة بالمعبد، أخبرته أنني أود أن أصير مِن المُنقطِعات لخدمة الإله، ولي حجرة أقيم بها إقامة كاملة بالمعبد، سيصدقني حتمًا، عليّ فقط، أن أمنع أفكاري من الوصول لعيني! ووضْع ابتسامة بريئة على شفتي! لكن بمجرد أن خَطت قدماي عتبة الباب الجانبي حتى وجدت العاملين مجتمعين لسماع تعليمات الكاهن. صار لضربات قلبي صوتٌ كدقات طبول، تمنيت لو أرجَأ الكاهن الاختيارَ ليوم آخر يبدو فيه وجهي أكثرَ ارتياحًا، وأعصابي أكثرَ هدوءًا.

(7)

انحسرَ فيضان آمالي تدريجيًا، صرت أتمنى أن تنبش الشمسُ بحثًا عني، تصِل أشعتها إلى كومة عظامي، فأبتهل إليها وأتلو التعاويذ، علّها تتسلق أذرعها الممتدة وتصل إلى الإله، فيخلّصني من مقبرة إهمالي المتجددة، لم أكن أصدق أن أجتمع أنا والناس ولا يعيروني انتباهَهم، أن أنعق كالبوم، أن أظل كومةً من عظامٍ يابسة، ومستقرًا لذرات الأتربة الحائرة. سَمعتُهم وقد بدأوا الحديث مع الشيخ هذا اليوم، فقال أحدهم:

- كيف لنا والوصول إلى ماهية المواد أيها الشيخ؟

تمهلَ الشيخ قليلاً، ثم أجاب:

أول واجب أن تعمل وتجري التجارب؛ لأن مَن لا يعمل ولا يُجري التجارب لا يصل إلى أدنَى مراتب الإتقان، فعليك يا بُنَي بالتجربة؛ لتصِل إلى المعرفة!

عاد صوت الطالب من جديد:

- وفى حقل تجاربنا أيها الشيخ مِن أين نبدأ؟

أجاب الشيخ بعد أن لازَمَه صمته وقتًا:

- البداية دائمًا تكون صعبة، عليك يا بُنَي بالبداية مما انتهى إليه سَلَفُك.

قاطع الصوتَ صوتٌ آخر متلهف للمَعرفة:

- كيف أيها الشيخ؟

ابتسم الشيخ، لتسرُّع الشاب، وقال:

- مَثلاً يا صغيري، الأعشاب عرَفها أسلافنا، فكان الكَمّون للمِعدَة، وحَلْف البَر للكُلَى وجلائها، والجرجير لعلاج الشَّعر، هذه المعارف البسيطة يا بُنَي يدرِكها عامة الناس.

عاود الصوت المتلهف الحديث:

- وكيف نستط...؟

لم يُمهِله الشيخ بل أشار له بالإنصات قائلاً:

- واجبك يا بُنَي هو استخلاص المادة الفعالة من هذه الأشياء وتركيزها، وعند تناول المريض لها تؤتِي مفعولَها في زمن قصير، هذه وظيفة الصيدلة.

وصل ضجري حتى النخاع، بدأ صوت أملي يَهذي كعادته، علا صوتي حتى صار عويلاً، لم يلتفت أيً من الحاضرين إليه، ولكن اليأس لم يتسرب إليّ فعاودتُ الصراخ: أدرِكوني أنا بمعزل عن مكاني، فقط انقلوني من هذا المكان لقبري، لتمثال إماراتي وشاراتي، لخدمي ووصيفاتي، للحلي التي أَمرتُ بصنعِها، لقد كان خاتم هويتي معي إلى أن سرَقَه اللصوص، لقد حفر مكانًا بإصبعي بعد أن ظَل به سنواتٍ طويلة، كان مِن الممكن أن ترَوه واضحًا لولا الدود اللعين، الذي لم يفرق بيني وبين الفقيرات، ليتَه حفرَ مكانًا بعظام إصبعي!

لم يلتفِت أحد إليّ، فعادَ صوتي إلى خفوته، لكن أفكاري ذهبت للبعيد، وكان لذهابها كل الترفيه عن نفسي. بدت جَدتي وهي تَنسج الكتّان في الدرب كتمثال ثابِت لا يتحرك منه إلا

اليدان، والعجائز الجالسات مستنداتٌ للحائط يرقُبْنَها، وأنا في حجرة السطح أرقب الجميع من فتحات الجدار. انصرفتْ اهتماماتي عن كل شيء عدا الثوب، حتى عندما دُعِيت مراتٍ للخروج مع الصديقات لم أَقبَل، لكن كثيرات منهن أَلْحَحْن، نَفدتْ جعبة حَجَجي قَبل نفاد صبرِهن عليَّ، فخرجت معهن إلى المعلّم بمدرسة المعبد ليباركَنا. وجَدنا الصبيةَ هناك وقد جلسوا القرفصاء وألواحهم الخشبية على سيقانهم، يلبسون أقنعة الوقار، تذكرت يومَ أن داست قدماي طريق المدرسة أول مرة، وحينما أتقنتُ الحروف جميعَها، أمسكَني "رخميرع " عن الذهاب، خوفًا عليّ من تهويمات العِلم كما قال، الذي يفرش طريق صاحبِه بالأماني، خاصةً وأن زوجته فيما بعد لم تُحبّذ لي هذا الطريق أبدًا؛ متعللةً بالمنزل وواجباتِه، مُلمّحةً إلى الأنوثة التي طرحتْ أولى ثمراتِها على جسدي.

اتخذتْ خطواتنا مَسلكًا مختلفًا في إحدى المرات، دَفَعنا فضولُنا لاختراق حَي النبلاء، لم نجد صعوبة في الوصول إليه، كلما تَهَذب الطريق واتسع، وفرغَ من روث البهائم بانت بيوتهم

من بعيد! وَددنا لو رأينا الزهورَ الملونة الطافية على سطح البِرك بحدائقهم، والتي حكى لنا عنها عامِل الخدمة لديهم في وقت سابق، أنْسَتنا متعةُ المغامرةِ خطرَها، فاجتزنا المسافة الباقية بجسارةِ صيادِي أفراس النهر ذاتِها، وقفنا بمحاذاة السور الشجَري لأحد تلك المنازل، كان للهواء بهذا المكان شذا الربيع، لم نستطع تحديد نوعِ الرائحة، هل هي لزهر الليمون؟ أم عطر آخر قاصر على النبلاء؟ تَذكّرنا جميعًا ذلك الأريجَ الذي نتنسّمه تحديدًا في بداية الربيع، والذي يمر على دربنا ولا يسكنه، فقط يُذكّرنا بوجوده. مع هذا، تَسرّب شرودي وقت المغامرة، ذهبَ انتباهي لمجلس الجَدة وهي تغزل صامتة، وأمّي التي كثرت فترات صمتِها مؤخرًا، تُرَى متى بدأتْ جَدتي رحلة صمتِها الأخيرة؟ ولماذا انعزلت عنا مُسيّجَةً بعزلتها؟! لهذا صديقاتي ضِقن بصمتي وتكرارية حَثي على الحديث، فعُدنا إلى الدرب، كانت تلك الرحلة آخرَ محاولاتهن معي، رأيتهن فيما بعد يتجمّعن للعب بالقُرب، أو وهُنّ يتسللنَ بعيدًا عن الأعين.

انتهت جَدتي في ظهيرةٍ ما من نَسج الكتّان الذي سوف تَخيطه لي أمّي ثوبًا. ببساطةٍ تحولتْ عن المنوال المنصوب وقالت: "انتهيت" وقتَ عدمِ توقُّعِي قولَها! فشعرتُ بالمفاجأة كاملة، كأني لم أنتظر طوالَ الأيام الماضية! أخذتُه، كان نسيجًا طويلا! فرْحَتي به كانت غامرة، تخيلت أنى به أعلو على زوجة أخي المستبِدة، وأحوّل أنظارَ جيراننا عن بهائها ونعومتها، تخيلت أني سأصُدّ به عيون الفلاحين عن الجزءِ الذي سيتحور في القريب، وبه سأتميز عن صديقاتي العاريات، فيَعُدنَ للتقرب إليّ، صارت فرحتي نسيجًا آخر موازيًا يغلّف المستقبل بغلالةٍ رقيقة ملوّنة، صرت أنتظِر الحدثَ برغبة لم تُدانِها رغبةٌ عندي من قَبل.

أحضرت أمّي الكتّانَ المنسوجَ إلى داخل المنزل مبتسِمة، لم تتوقف عند مَصمصة شفاه العجائز ولا نظرات اتهامِهن! وأنا، تناسيتُ ما بيننا في غمرة فرحتي، لفّتْ به جسدي من أسفل الذراعين، ليغطي رُكبتي، كانت فرحتها به أكبرَ من فرحتي، وتَمتمتْ بكلمات تدل على وعيها بالخياطة فقالت:

- نخيط مِن هنا وهناك.

وأشارت لجوانب النسيج، وحينما استفسرتُ عن الحَمّالات التي ستثبّت الثوب على كتفي أجابتْ بدراية وثقة كبيرتيْن:

- سنصنعها مِن باقي الكتّان المضفور.

فرِحت وقلت:

- سيكون مميزًا.

فقالت لي وهي تشير إلى النسيج:

- إنه تمييز لكِ ارتداؤكِ ثوبًا دونما حليات..يكفي أنه الثوب!

تَنهدتُ، كانت فرحتها مكتسِحةً لأي حزن مترسبٍ هناك، هكذا بدت! لكن القَدَر لم يمنحنا الفرح، أو الإحساسَ الزائف به، دَخلَ أخي فانقطع حديثنا، وبمجرد رؤية النسيج بين يدينا اكفهرَ وجهه، وتساءل عن مَصدر الكتّان، فقالت له أمّي:

- ألم تَقُل لك زوجتك إنها إحدى الهِبات السخية من زوجة حاكم الإقليم؟

نظر مجددًا إلى الثوب، وعاد وركّز نظراتِه في عينَي أمّي؛ بدا أنه يحاول انتشالَ الحقيقة من بئرها العميقة، ثم تساءل وصوتُه يغلّفه الشك:

–أين أنتِ ورؤية زوجةِ حاكم الإقليم؟!

لم ترتَبِك، لم يَطرف لها جفن. كنت أرقبها واجِمة، كدت أعترف له في تلك اللحظة بكل شيء، لكن أمّي قالت بصوت بدا كما لو كان صادقًا:

– لم أقابِلها، لقد ذهبتُ للمعبد، فأعطوا لي من الكتّان الحِزمَ الكثيرة.

قال والضيق يَعتريه:

– ولماذا لم يُعطوا الباقين؟ هل وَضَعتِ ريشةَ "ماعت" على رأسك؟ أم ظَهرت علامات سجودِك لـ "رع" في جبينِك؟ جميع الفتيات عاريات، فلِمَ قررتْ زوجة الحاكم تزيينَ جسم ميريت؟

تماسكت أمّي أكثر، بدت كحائطٍ مسمطٍ لا نتوءَ فيه وقالت بحزم:

– لا بُد للابن أن يُصدّق أمّه.

لم يُمهِلها فقال:

- حينما تقول الأُمّ الصدق!

قالت:

- اصمت.

فقال:

- متى يحين أجلُكمَا، وأشار إليّ وإليها، فأفرغ لمسؤولية أولادي؟ وأَعِدكِ يا أمّي أن أُعَلِّمَهما الصدق.

تركَنا وانصرف، وانصرفت زوجته وراءه بملامحها الجامدة.

استيقظت أمّي صباحًا على تأوهات الجَدة التي ترقد أسفل الدرج، وصلتْ إليها وقد لفظت أنفاسَها الأخيرة، ربما بعد معاناةٍ استغرقت الليلةَ بطولها، وربما لم تستغرق تأوهاتُها إلا ما وصلَنا منها، حقيقة فكرة نسجِها للثوب هي التي بَعثتها من موتها عندي، فلم يكن لها وجودٌ في حياتي منذ أن تَسيّجتْ بصمتِها! استيقظَ " رخميرع " وزوجته على نواح أمّي المتعالِي، هرولَ مِن مرقده فزعًا، قَلّ فزعُه بعدما استطلع الأمر كأنه ينتظره، أو كأن

سنواتِ عمرها التي بات من الصعب إحصاؤها هوّنتْ فراقَها!
جلس بهدوءٍ جوارَها يتلو من تعاويذ ذاكرته، مَرر يده على جبينها الصغير، سمعتُ بعضًا منها:

"ليت "رع" يشرق على دار أبديتك، وينير طريقك
باتجاه الفردوس
ويكون حليفَكِ أثناء مرورِكِ عند جُحرِ الثعبان
المخيف "

خرجَ بعد أن فَتح باب منزلنا المطِل على الدرب للنسوة اللاتي تَجمّعن على صوت أمّي، كانت جَدتي ما زالت على وضْعهِا الذي فارقت به حياتَنا، تجثو على ركبتيها، وجبهتها تلامِس الأرض، نزلتُ درجات السلم، اقتربتُ منها بحذرٍ متسائلةً هل فقدتْ جَدتي شيئًا كثيرًا؟ إن جسدها كما هو ناحِلٌ صغير، هل للموت أثّر أكبر من ذلك سيأتي؟ اقتربتُ أكثرَ ولمستها، يدها باردة تمامًا بعد أن فارقتها حرارتها.

أخذَ نحيب أمّي يعلو، شارَكَتْها فيه النسوة، فصار نشيدًا حزينًا رتيبًا، وضعتْ هي والنسوة يدَها على رأسها، والأخرى تدق بها على اليد الثابتة، فكان لحركاتِهن وقْعٌ منتظِم كأنهن تَدرّبْن عليه! صعدتُ إلى حجرتي بالسطح أرقب تدفق النسوةِ بنظامٍ على منزلنا. وحينما ارتفعت الشمس في السماء كانت الباحة بالأسفل تَضج بالنسوة، عدتُ فهبطتُ الدرَج بحذر؛ كي لا يلاحظني أحد، فيهمس متذكّرًا الكتان، أو مُلَمِّحًا لأنوثتي. زوجة أخي ما زالت في حجرتها، وجَدتي قد اتخذت وضعًا أفقيًا، مُغطاة بحصيرة ادّخرَتها أمّي؛ لفرشِها في الأعياد، تسللتُ بهدوء أسفل الدرج وكشفتُ عن وجهها، فبدا لي فاقعَ الصُّفْرة، لكن أمّي نهرتني فأعَدتُه، خرجتْ زوجة أخي من حجرتها، كانت في قمة بهائها كأيام الأعياد، لاحظتُ لمعانَ بشرتِها بالدِهان المعطر، انتهزتْ هذه الفرصة والجَمْع ؛ لتؤكد لهن بهاءها، أمّا صديقاتي فاجتمَعْن خارج المنزل، كنت ألمحهن يُلقِين النظراتِ الخاطفة، ويَجرين بعد أن تَنهرهن إحدى النسوة، ولكنهن وجَدْنها فرصة للتسلل حينما حضر أخي وأحدُ الكهنة، طلبَ الكاهن من أخي لإلقاء تعويذته مكانًا هادئًا، اختلى أخي بزوجته يستأذنها أن

تكون حجرتهما الخاصة مكانًاً يتلو فيه الكاهن تعويذتَه على المتوفّاة، لكنه حينما عاد طلب من أمّي الخروج والنساء إلى الدرب كي تفرغ سقيفة المنزل للكاهن والجَدة، فأدركتْ أمّي أن زوجته رفضت لحجرتها هذه المهمة، أطالت أمّي النظر "لرخميرع" وهي فاغرةٌ فاهَا مُحدّقة، لكنه كان على جمودِه وبلادة حِسِّه، هربَ بعدَها للخارجِ؛ متعللا بإعداد المَدفن.

صعدتُ بضع درجات من السلّم، بقيتُ في مكان يسمح لي بسماع رُقَى الكاهن، خرجَت النسوة للدرب وقد تحولْن جميعهن لندَّاباتٍ نَشيطات، عادت زوجة أخي إلى حجرتها المعطرة من أثر الدِهان الخاص بجسدها وشَعرها، في حين ظلت أمّي بجوار جَدتي، فأمرَها الكاهن بالانصراف. حاولتُ سماع رُقَى الكاهن التي ستنير طريق الجَدة هناك، ولكنى لم أسمع شيئًا، بَخل الكاهن بها على جَدتي حينما ألقى نظرتَه على منزلنا وتأكد من ضآلة أجرِه، وربما تلاها سِرًا

عاد أخي ومعه رَجلانِ من خدم المعبد، لم يَبق إلا دقائق، ثم اصطحب الكاهنَ إلى خارج المنزل، لَفّ الرجُلانِ الجَدة جيدًا بالحصيرةِ التي غَطتها بها أمّي، ثم حَملا اللفافةَ إلى المكان الخاص في المعبد بالتحنيط. فعادت النسوة للتجمع بسقيفة الدار، رغم اشتداد الحرارة بأعلى فترةَ الظهيرةِ لم أفكر في النزول البتة، احتميت من أشعة الشمس بتلاوة التعاويذ، وعندما صار لصومعة القمح القائمة بركن السطح ظِل، شذّبتُ هيكلي ولملَمتُه ليتكوم في حدود الظل لا يتعداها، تناولتُ بيدي حفنةً من حبوب القمح من قلب الصومعة فَلُكْتُها حتى صارت مضغةً تساعدني على جفاف حَلْقي، رغم ذلك ظل النسيج بمخيلتي، وتمنيت لو أعرف ذلك المكان الذي خَبّأَته فيه أمّي، فأحضِره وألتَفّ به، وأنْعَم بملمسِه الراقي!

يجيئني صوت النسوة بأسفل غناءً حزينًا، يثير بداخلي التساؤل: هل فَقَدْنَها حَقًا؟ أم أن موتها أثار بداخلهن أحزانًا دفينة؟! قُربَ الغروب انفض الجمْع، تناسَيْن الحزنَ وذهبت كل واحدة إلى منزلها؛ لإعداد طعام العشاء لأزواجهن وأولادهن

القادمين من عناء العمل طيلةَ النهار في الزروع أو المقابر الخاصة بالحاكم. أمّا "رخميرع" فتَحلّق هو وزوجته وأولاده حول عشائهم، بينما أمّي صعدت؛ لتستطلع أمْرَ اختفائي طيلةَ الوقت، ألقت نظرةً اخترقت حُجبَ الظلام المتنامي، واخترقَتْني، لم تنبِس بكلمة، استدارت، فتناولت رغيفيْن من سلةٍ معلقةٍ بجوار الحائط، فبَللتهما بماء الجَرة، ناولتني أحدَهما، وجلستْ تَقضم الآخر. انتظرتُ منها أن تتحدث في أي شيء، لتنتزِعَني من وحدتي وخوفي الشديديْن، لكنها لم تبدأ، فبادرتُها على الرغم من معرفتي بمصير الجَدة وأين ذهبت:

– هل دَفن "رخميرع " الجَدة؟

هزت رأسها بالنفي، فعُدتُ للحديث:

– إذًا أين اصطحب الرجال الجَدة؟

تَحدثت، فخرج صوتها مغايرًا من أثر النواح:

– ذهبوا بها إلى المعبد؛ لاستخراج أحشائها قبل التعفن، وسيضعون بدلا منها مِلحَ النطرون.

آنَسَني صوتها فعُدتُ أسأل:

– لماذا؟

فقالت:

– إنه حال الفقراء، أين لنا والمواد المطهرة والبهار باهظة التكاليف؟ أين نحن ولفائف الكتّان الطويلة؟ أين لنا والغراء؟ إنه للأغنياء، بينما النطرون لنا دون غيرِنا.

قلت:

– ألن نرى جَدتي ثانية؟!

– سنراها عندما يردها لنا الكاهن جافةً تمامًا من المياه، وملفوفةً بإحكامٍ بذات الحصيرة؛ بعدَها تُشيّعها نظراتنا لِمَثواها الفقير.

سألتها بخوف:

– ولماذا الحصير يا أمي؟ إنه شائِك خشن.

فضحكت بمرارة وقالت:

– هل تُعطينَها نسيجَ الثوب تلتِف به؟ وتَذكر لكِ ذلك في أبديتِها؟!

اتسعت عيناي ولم أُجِب، لم تنتظر منى الإجابة فقط، اتكأت على جنبِها واستغرقت في سُباتٍ متعب، ظَل كلامها يحوم

بحيّزي الصغير ويضايقني، أفكّر أكثرَ في ثوبي الذي لم يَكتمِل!!

(8)

ما زلت أرقد في السلة وقد أدركتْ ذرات التراب عجزي، فازداد هجومها، أرقب المكانَ حولي من فتحات خوص السلة المتاحة بضيق، لكن أفكاري الجائلة كما عينيّ ترقب المعبد هناك حينما تشبثت قدماي بالأرض كأنهما نبَتتا منها، خلف أسطوانة العمود الضخم أقف بهدوءِ الموت، ويدى على قلبي تُسكِت ضرباته، يجتاح الدم قنواتِ جسدي إلى أعلى، فيرهقني بضغط اجتياحه، عيناي مثبّتتان على الموقف برمَّتِه وقد تجمّع العاملون بساحة المعبد المكشوفة والشمس الضاحكة استهزاءً في وجه السماء، ألمح الجميع وقد نضح مِن خلجاتهم القلق، حركاتهم أشبَه بالعرائس الخشبية، تُحَركهم قوة كبرى بعصبية، ربما القلق مناصَفةً مع الترقب، أظهَر بعض الفتيان والفتيات

استرخاء وطبيعية! ربما لمخزون الثقة لديهم، ينضح الجسد بما فيه، وربما اللامبالاة المتولدة من قلة الطموح، أمّا أنا فانزويت في مكاني يتساقط العرَق من عليائه، ويكتسح هضابَ جسدي، وينحدر بمنحدراته ليستقر عند المِئزر بالخصر، قليلا وابتَل المئزر أيضًا، والتصق بجسدي معلنًا عن الحالة التي أخفيها.

أحكمتُ إخفاء نفسي جيدًا خلف العمود المشكّل على هيئة زهرة اللوتس، اختفيت عن أنظار الجميع، وربما ما يعتمل بداخلهم إخفائي عنهم، كان هذا اليوم كيوم الحساب تمامًا لا يَرى الشخصُ فيه سوى نفسه، يفرد صفحة أعماله يراجع المسطور فيها بكل دقة واستحضار ذهن، انتظارًا للحظة الاستحواذ الآتية!

دخلَ الكاهن المشرِف البهوَ المتسع، المخصص لتقديم القرابين والأضحيات إلى تماثيل الحكام السابقين، ثم دعا مجموعاتِنا للاصطفاف والنظام؛ لمقابلة الكاهن الأكبر، الذي سيصدِر بدوره تعليماتٍ قد تكون سُلّمًا يرتقي عليه أحدنا، ويهبط عليه الباقون!

كان لا بدّ لي من الخروج من مكمني وراء العمود، سرت ببطءٍ وثقلِ هواء بؤونه، اندمجت داخل الجَمع، ثم تعالَى صوت الكاهن المشرِف ثانية:

– الفتيات هنا، والفتيان هناك.

اندسست وسط الفتيات ويداي مفرودتان أمامي، تَحجبانِ مئزري المبتل في انتظار قدوم الكاهن الأكبر من مكانه في الداخل قُربَ قُدس الأقداس، انتظمت الفتيات في أربعة صفوف يفصل بينها قرابة نصف الذراع، على مقربة اصطف الفتيان وقد تعالَى منهم الهرج الذي خَفَت تدريجيًا بإشارة من يد الكاهن. أمّا "مو- سا" فتقدم الصف الأول بثبات، وكأنه استأثر ببشائر الربيع وحدَه، كانت النسمات تداعب وجهه ومئزره القصير، وهدوؤه ينساب رقراقًا مع التفاتاتِه المتكررة تجاهي!

طال انتظارنا للكاهن الأكبر، دبّت الفوضى في الصفوف من جديد وتعالت همسات متسائلة عن سبب الاجتماع، ولكن الفتيات أجمعن اعتمادًا منهن على حاستهن السادسة على أن

الاجتماع خاص باختيار الكاهن الأكبر لمَن سيمْثُل منهم أمام الحاكم فيُحيى ليلتَه بالأغنيات، والقيثارة، والهارْب، كما ينبغي أن يكون عيد الربيع. عندئذ، فُتِح الباب المُفضي إلى الداخل على مصراعيه، فشمل المكانَ صمتٌ تَخلله همس ما لبثَ أن خفُتَ تمامًا، دخلَ الكاهن الأكبر جالسًا على كرسي من خشب الآبنوس المذهَّب المنقوش بقرص الشمس "رع" في كامل عنفوانه، تنبعث أشعته أذرعًا حانية للأرض، يعكس الذهب أشعةَ الشمس الحقيقية بريقًا خاطفًا يزيغ الأعين.

توقفتُ عن النظر إلى الكرسي المحمول على محفة يحملها أربعة من خدم المعبد المُخَصصين لمثل هذه الأعمال، وعرجتْ عيناي إلى وجه الكاهن الأكبر، تغلبت حمرة النعيم على سمرته. ظهرت إحدى كتفيه عاريةً والأخرى استتد جِلد النمر الذي يرتديه عليها تلمسًا لاستقراره. أمّا رأسه فكانت حليقة تمامًا! ثم، أنزَل الخدمُ المحفة، وحملوا الكرسي إلى مظلةٍ بالقرب، في مواجهتنا تمامًا، ألقى علينا الكاهن الأكبر نظرةً فاحصة دون أن ينبس

بكلمة، فزاد قلقُ البعض، ثم بدأ في حديث هادئ متنقلا بنظراته بيننا بين الحين والآخر:

"أمَا وقد دار الإله العظيم "رع" في السماء، فعادت لنا الأيام تحمل شذا الربيع وبهاءه، فننعَم بخيرات الإله ونستمتع بهوائه العليل، بعد أن تنعّمنا بدفء شتائه وصِدق ديمومته، آن لنا أن نحتفل به، ونعدد نعمَه على أرضه: في زهوره الملونة، في محاصيله الوفيرة، وصفاء سمائه، وتدفق نيلِه! وأنتم يا مَن يقع عليكم شرف خدمة الإله وإحياء بقائه، لقد كلّفني الحاكم باختيار بعضكم ممن ألمس فيه قوة النفع، وشرف تمثيل المعبد، لإحياء حفل الربيع الذي ما هو إلا صورةِ مِن صور "رع" المتعددة"

وَزع الكاهن الأكبر العملَ بعد ذلك على الكهنة المشرِفين، كلٌّ حسب تخصصه، فطلب مِن الكاهن المشرِف على دار الحياة تقديمَ خطة عمله، والتي سوف تُعرَض على حاكم الإقليم؛ كي

يَخرِج العمل مكتملا في هذا المجال. تقدّم الكاهن المشرِف على دار الحياة فقال:

- قررنا هذا العام أن نقدم للحاكم نسخة من كتاب الموتى بمناسبة الانتهاء من نحت مقبرته العالقة بالجبل، وتزيينها، قام الكاهن المرتل "مو- سا" بالإشراف على هذه النسخة، كلَّفَته والعاملين معه طيلة الشهور السابقة، واسمحْ لي أيها الكاهن الطاهر أن أترك له الحديث في هذا الأمر.

تقدّم " مو- سا " بثبات الواثق وقد همس لأحد الخدم، فذهب، ثم فقال:

- سيدي لقد استغرق عملنا الشهورَ السابقة، لقد استخدمنا لصناعته ورق البردي الممتاز، والمزروع على ضفاف نهرنا، المصنّع بأيدي الصنّاع المَهَرة التابعين للمعبد، واستخدمنا في كتابة الآيات والتعاويذ الذهبَ الخالص المشرق كـ "رع " في أفقِه، وقد راعى فريق العمل الإخلاصَ وتَحرّى الدقة. إن

حضوركم الدائم لمقر "دار الحياة" كان حافزًا لهم، فخرجَ العمل على أكمل وجه.

أنهَى " مو- سا " حديثه عندما أتى الخادم حاملاً كتابًا في يده، ما إنْ وقعت نظرات الكاهن الأكبر عليه حتى انفرجت أساريره وتَهلّل، فانفرجت أسارير باقي العاملين بالمعبد لذلك، بعدها أمرَ الكاهن موجهًا حديثه للمشرِفين بإعداد جِرابٍ من الجِلد، المعالَج بالدهون العطِرة، للكتاب، وصندوق من خشب الصندل مُطَعمًا بالعاج الإفريقي والصدَف بحجم الكتاب نفسه، نظر تجاه "مو- سا" وأمرَه بالإشراف على التجهيز بنفسه، ثم نظر إلى باقي الكهنة وأمرَ بحياكة ثياب جديدة كي يلتقي "مو- سا" بها الحاكم.

أَخذَني حديث " مو - سا " وكبير الكهنة مِن قلقي، وتسللتْ إلى نفسي ثقة قليلة من نظرات "مو- سا " التي صوَّبَها تجاهي كل حين، كنت فرِحة بمشاعره، وفرحتُ أكثر حينما لمستُ بنفسي تقديرَ الكاهن الأكبر له، وتساءلت: هل نَهَمُه في تحصيل

الدروس، وقراءة الكتب، وجدّيته في الإشراف على النسخ، وتصنيع الحُلِي ستؤهله يومًا للجلوس على مقعد الكاهن الأكبر نفسه؟ أم أصله النبيل أهَّلَه سَلفًا للترقي!؟

عندما عاد "مو- سا" إلى مكانه في الصفوف، عاد الكاهن الأكبر للحديث في موضوع مختلف، بخصوص النبيذ والجعة المقدَّمان للحاكم، عندئذ تَقَدم الكاهن المشرِف على مزارع كروم المعبد، تَحدّث مع الكاهن الأكبر حديثًا خافِتًا، على إثرِه، أرسل الكاهن الأكبر مَن ذهبَ كالريح، وعاد محملًا بإحدى الجِرار الفاخرة. كان الصمت يشملنا ونحن نشاهده وهو يقدّمها للكاهن الأكبر، الذي فحصها بنظراته، وتأكد من صحة أختامِها، ثم أمر بنقْش دعاءٍ له الـ "دي- عنخ – جت"[*] على جميع الجِرار المماثلة، ثم أوصَى بأهمية أن تكون ممثلات المعبد حاملات الجِرار في غاية التأنق، لهذا أمرَ بمنحهن الدِهان المعطرة التي سوف يضعْنَها عند مقابلة الحاكم، وأشار أيضًا ببدء حياكة الملابس؛ لتكون جاهزة وقتَ الاحتفال.

---

[*] البعث/ الأبدية/ الخير.

دقّ قلبي بشدة مُنبِئًا عن حديث الكاهن الأكبر عن الحفل الموسيقى، واختيار عشر فتيات تعزف بعضهن، وتغنّى الأخريات، عاد توتري لأشدِّه. لاحظَ "موسا" حالتي، فلاحقني بنظراته ليهدئ مِن روعي، ولكنى حنقت عليه وهو الواثق، وقد مَر مِن عنق الاختيار، ولم يُصَبْ بالفشل.

بدأ الكاهن الأكبر الحديث في اختيار الفتيات، سقطت نظراته الفاحصة على الفتيات وأنا وسطهن، ارتكنتُ لجَمال تكويني مؤكدةً لنفسي اختياره لي، طلب كبير الكهنة منا جميعًا، أن تتقدم أمامه فتيات الموسيقى، تهاوَت أحلامي، وأصِبت بالذهول، وحدّثت نفسي بصوت ربما سمِعه مَن بجواري " إذًا اختياره لن يشملني؛ لأنني لست مِن فتيات الموسيقى أو الغناء"

تقدّمت الفتياتُ أمامَه، وبدأتْ نظراته في الاختيار منهن، واحدةً تلو الأخرى، وكلما اختار واحدةً تَصبّب عرَقي بغزارة من مسامه، التصق شَعري بجسدي، والتصق ثوبي بساقي، صرت

كما لو أن أحدهم سكبَ ماءً على رأسي فجأة، إلى أن أتم الكاهن الأكبر اختياره كاملاً، أمّا باقي التفاصيل الخاصة بهذا العمل، فلم تصِل لأذُني البتة.

أفقت على تفردي بفناء المعبد كعود يحمل زهرةَ لوتس واحدة، تتلقفه رياح الأفكار، تتهاوَى به يمينًا قُربَ الانكسار، ثم تأتى رياح أخرى من الجهة المضادة، وتُكَرر معه تجربة الاقتراب من الموت ذاتها، فسألت نفسي:

– أين ذهب الجَمع؟ و "مو- سا" هل تركَني دون حديث هكذا؟

أجبت نفسي وكأنني أهذي

– ربما أمرَهم الكاهن الأكبر بالانصراف.

لم تواتِني رغبة النظر تجاه مظلة الكاهن الأكبر، استدرت منصرفة، حينما جاءني صوته في اللحظة ذاتها

– إلى أين يا فتاة...؟

صُعقت، استجمعت شتات نفسي، فعاد لجسدي بعض انتصابِه، ولعينيّ بعض لمعانهما وواجهته:

- أمرك يا سيدي.

أجبت بما استجمعته من ثقة، فقال وابتسامة لها معنى ترتسم ببطء على وجهه:

- ما هذه الحالة التي تبدين عليها؟

فابتسمت مكتشِفة أنه مُطّلِع على ما كنت أحاول إخفاءه:

- إنه فقدان الأمل يا سيدي

تحدّثت إليه وأنا أسير ببطء تجاهه، وعند القرب سقطتُ أمامه على ركبتيّ.

- وأين فُقِد أملُك؟

أجبت اعتقادًا منى أن الصراحة قد تؤهلني عنده لِمَا أتمناه:

- هنا سيدي عندما لم يشملني اختيارك الكريم للمثول أمام الحاكم في الاحتفال الكبير، ألم ترنى يا سيدي في الاحتفال الكبير للنهر الحاني؟ ألم أنَل إعجاب النبلاء برشاقتي وثقتي؟ ألم أحصل على العمل هنا بعد أن أثبّتُ جدارة في ذاك اليوم؟ لقد رشقت ثقتي بسهام تجاهلِكم لي، فأصِبت في مقتل.

تركني الكاهن الأكبر أتحدث، وحينما انتهيت مِن حديثي كانت ابتسامته قد ارتسمت كليةً على وجهه، وحددت ملامحه وملامحها، إذ لم أفقِد الثقة في خبرتي بالرجال، فهذه النظرة كانت مِن النظرات نفسها التي تلاحقني في الدروب، لا تختلف عنها في شيء سوى في كونها صادرةً من الكاهن الأكبر، حدّثت نفسي بما حدّثت، تلمست إعجابَه الخفي، فبدأتْ ثقتي بنفسي تعود إليّ، هجمت الأفكار الكثيرة عليّ على الرغم من كونها اللحظة فقط التي صافحتْ نظراتي وجهَه قبل أن أعود بها إلى الأرض، لحظة تأكدت فيها مما يعتمِل بداخله، قبل أن يقول:

- هل لديكِ شيء آخر يضايقك، لتبوحي به؟ فأنا لا أظهَر للعامة كثيرًا.

أجبته وما زال وجهي تجاهَ الأرض:

- لا يا سيدي.

قال ونظراته أحِسها على وجهي وأجزاء جسمي المتفرقة يعُبّ منها ما يريد:

- ألِهذا تتوترين؟ كان مِن الأجدر أن تقولي لي ما ترغبين.

قلت له سريعًا:

- وهل سيتحقق كل ما أريده؟

- عليّ أولا أن أفكر فيه.

قلت:

- وبعدَها؟

كان ينتظر منى هذا الرد تحديدًا، هذا ما فهمته، فأجاب:

- بعدَها! هذا دوركِ أنت!

لم أجِب، ولم أرفع رأسي، كل ما فعلته هو الحملقة إلى أرضية المعبد المبلّطة، توقّف تفكيري تمامًا في هذه اللحظة، أرجأته لوحدتي، خاصةً وأن نظراتِه ظلت تخترقني، وتبصر ما أفكر فيه، عندئذ ضحك بشدة، وقال:

- لكِ يا "ميريت" جسدٌ رائع، وشَعر جميل، وبخصوص عَرَقك، فإنكِ تمتلكين عطرًا فواحًا!

سجلت دهشتي أعلى منسوب، الكاهن الأكبر يعرف اسمي جيدًا، وما قاله بخصوص تفاصيل جسدي، فهل يريدني؟ أجاب كأنه يرى تشكّلَ الكلمات بمغاراتي:

- نعم أريدكِ، إنْ قبلتِ فعليكِ فقط إبلاغ المشرِف على الموسيقى، أليس هو مَن يشجعك؟

لم أقل شيئًا، ولكنى رأيت الأعمدة حولي تدور ببطء، ثم بسرعة، وتتشابك من أعلى مُشَكّلةً قضبانًا حول أفكاري، فاتخذت وضعَ السجود، ليس له، فقط لأريح رأسي، كل ما سمِعته بعدها هي أوامره للخدم بحمل المحفة، وضحكاته العالية الواثقة، وصوت بكائي يعلو ويعلو، ودموعي تبلل وجهي، وأرضية المعبد تحته!

(9)

تلك رياح برمودة، وربما بشنس، تنشط تلك الرياح ذات الصهد فيهما، تزأر من النافذة فتصِل إلى كومة عظامي بالسلة، تصّفر حينما تنفذ مِن بين ثنيات عظامي المتكومة، تنفض الغبارَ المتراكم برتابة على عظامي، فتغير تأريخ الزمن لمَن يؤرخ لحضوري بمقدار الأتربة المتكومة على عظامي.

يَخرج طلبة العِلم إلى شيخهم بالحجرة، ويَدخلون، لم يكلِّف أحدهم نفسَه مشقة السؤال عن وجودي، وأنا التي إذا ما ظهرت بمكان تحوّل إلى ساحة كبيرة تحتفى بي، أنا التي حوّلت نظرات الكهنة إليّ، وأدرت دفة أعمالهم تجاهي، أنا التي صَب الجَمال سائله على جسمي، وسبحت في بحيرة الدلال، أنا التي كَسرَ الحاكم من أجلها قانونَه، وتزوّجني، ولم يأبه كثيرًا لتوسلات

زوجته الرئيسة، هناك وقد أدرت رؤوس العامة من فلاحين وحرفيين، وملأت خيالاتهم بالقصص. أنا التي كنت ثمرة الفاكهة الطيبة والمحببة لجميعهم، كيف لي وهذا المكان المنزوي؟ أي عصرٍ هذا الذي أكون فيه كومة عظام؟ أين وصيفاتي اللاتي أَخذَن على عاتقهن تزييني؟ لم يكُنّ يزيِّن زوجة الحاكم، كُنّ يستمتعن بتزيين الجَمال وإبرازه كما قُلْن!

ما زالت الرياح الحارة تلفحني، الرياح هذه تشبِه الرياح التي لفحتني – رغم فارق الزمن – حينما توسّل إليّ "موـ سا" كي أقبَل دعوته لزيارة منزلهم، والتعرف على أمِّه وأختِه "تي" هل تعلل بهما لدعوتي؟ قال وقتذاك إنهما راغبتان في التعرف عليّ! وقال أيضًا: كي تهدأ حالتك قليلا! لم أستطع إخباره بما عرَضَه عليّ الكاهن الأكبر، لم أستطع أن أقول له: إنّ ما جذبَه فيّ لفتَ أنظار الكاهن الأكبر قَبله! كان سيقول لي: إنه يحبني، وإنّ ما جذبه لي هو مميزات شخصيتي! لو قال لي ذلك لقلت: هُرَاء، ما يجذب الرجلَ للمرأة في البداية جَمالها، وحينما يقترب– إن أراد –

يدرك أبعاد شخصيتها مع الوقت، وإلا لكان للكاهن أيضًا عُذرُه المَقبول في أن مميزات شخصيتي هي ما جذبته لي!

كنت أسمع توسلاتِه لي بضيق لم أستطع أن أُظهِره له، لأنني لم أحدد بعدُ ما سوف أقدِم عليه، دائمًا يأخذني تفكيري عن كل ما حولي، ودائمًا ما كان يأتي إلى حجرتي، ليساعدني كالعادة. لم أعُد أذهب لدروس الهارْب كثيرًا، الاختيار لحضور الاحتفال لم يعد مقرونًا بإجادتي العزفَ على الهارْب، تلبيةً لِمَا طلَبه الكاهن الأكبر منى لن يتيح لي حضور الاحتفال فحسب، بل سيفتح لي أبوابًا مِن الأمل أوصدتها بنفسي من قبل؛ لِظَني وقتذاك أنه من الصعوبة الدخول من خلالها. كنت أترك لـ "موسا" مهمة القيامَ بأعمالي، وأجلس متكئة لإحدى جدران الحجرة، اعتقد أن ما وصل إليه حالي مردُّه حِرماني من الاحتفال، جعله اعتقاده يمعِن في إرضائي، ظللت هكذا إلى أن أعلنَ الكاهن المشرِف على الخدمة بأن موعد الإجازة حان، وكان لزامًا عليّ قضاء اليومين القادمين بمنزلي، كدت أتعلل بالرغبة في التفاني في خدمة الإله، لكنه قال إن إحدى العاملات البديلات ستحل

محلّى! وهي أيضًا تمتك رغبة التفاني في عبادة الإله مثلي! كان التبديل والإحلال مِن سمات العمل بالمعبد! لم أكن أعلم، وددت لو أبقَى، خاصةً وأن "مو- سا" يقوم عنى بأعمالي، ولكن التعليمات كانت صريحة، كان عليّ كي أحافظ على وضعي، التظاهر باللهفة لإجازةٍ أستمتع بها وسط أسرتي.

عند ذلك تذكرت أمِّي، وما وصل إليه حال عقلِها مِن تدهور، وخيالاتها التي أضحت حقيقة نعيشها، وأخي الذي عرَفَ ما استطعنا إخفاءه عن الناس جميعهم، وزوجته التي تّغّير حالها من حاسدة لِمَا وصلتُ إليه بوظيفة المعبد إلى شامتةٍ لَمَا سقطت فيه، بعد أن صرحتْ أمِّي بمكنونها وفَضَحت نفسها وفضحتنِي!

لم أجد الظرف مواتيًا كي أطلب مِن الكاهن تحويلي إلى متفرغة مقيمة بالمعبد، فيوفر لي ذلك مكانًا ثابتًا آوي إليه ليلا، فلا أعود للمنزل أبدًا، ولكن ظروف المعبد منذ التقاء الكاهن الأكبر بنا، لم تتح لي فرصةَ التحدث عن هذا الشأن، ولم أجِد أمامي إلا أن أقبَل دعوة" مو - سا"!

خرجنا من المعبد ذاك المساء، تخليت عن وجبة الطعام التي يوزعها الكاهن لإحدى الفتيات، سلكنا طريقًا مغايرًا تمامًا عن الذي نسلكه دومًا باتجاه منزلنا، عبْرَ الزراعات والهواء الرطب المعطر شققنا طريقنا، كان دومًا ما يسلك أولا ليختبر موطئ قدمي، منزله بعيد في قرية بالجوار تلاصِق قريتنا من الجهة الجنوبية، كانت في مظهرها البعيد تشبِه قريتنا تمامًا مِن حيث أشكال منازلها، وإطلالها على النهر، قُربَ الوصولِ استطاع أن يصل إلى يدى الباردة فلمسَها، لم أبدِ معارَضة، تناولها بيدِه وضغطها، رغم ما شعرت به يسرى في أوصاله لم يؤثر ذلك فيّ البتة، كان عقلي يجول بعيدًا، ربما في أجواء المعبد، وربما قرب مكان الاحتفال الذي يُعَد الآن بجدية، ولن أكون فيه.

قُربَ الوصولِ سَحَبت يدي بهدوء، فتركَها، دخلنا دروب القرية، وعرجنا إلى دروب نظيفة، تأخذ المنازل معها أشكالا منظّمة، وبعضها له حديقة غنّاء ساكتة الآن تحت الليل الربيعي إلا مِن رائحتها.

مكثت فترة في الحديقة النائمة وقد سَبَقني "موـ سا" للداخل، لم يَطُل بقائي منفردة، رغم ذلك امتد حبل خيالي، حيث الكاهن الأكبر يجلس على كرسيه وأنا ساجدة أمامَه مِن هول ما سمعت، لم يمهلني "موـ سا" للاستغراق في خيالاتي، عندما خرج ووراءه أمُّه وفتاة عرَفت أنها أخته، ربطهما تَشابهُ الملامح.

كان لاستقبال أمِّه وأخته أثرٌ كبير لاستعادة هدوء نفسي، بدا المنزل من الداخل في صورة رائعة، وقعت نظراتي على أشياءَ لم أعرف كُنهَها في البداية، لكن ذكائي الفطري ساعَدني لمجاراة ما أراه، أجلستني أمّه على المقعد المفروش بالأبسطة المزركشة، ألقيت نظرة خاطفة على كل ما أراه، أشد ما لفتَ انتباهي تلك الآنية التي وُضِعت فيها الزهور الملونة، والتي تُضفِي بهاءً رائعًا، وقتَها تمنيت أن أمد يدي وآخذ إحداها أتشمّمها، وتساءلت: منذ متى وأنا أُمَنِّى نفسي بإحدى هذه الزهور؟

أحضرتني أمّه من أفكاري بترحيبها، بينما أخته وقفت تُعِد العشاء بالقرب على ظهْر منضدة تشبِه منضدة القرابين بالمعبد، فقط كانت قصيرة الأرجُل، أمّا الجدران فغُطيت بطبقة من الجص الأبيض الناعم، ونُقِشت بمناظر الطيور والنباتات متعددة الألوان. استأذن "مو ـ سا" أمّه، فأخذ بيدي لحوض مبلّط، صَب عنده الماء على يدَيّ لأغسلهما، سقطت نظراتي على الماء وقد تسرب إلى مزرابَ ثم اختفى في باطن الأرض، عدت إلى الجلوس أمام الطعام هذه المرة، تأملته قَبل الشروع في الأكل، كان مكونًا من قِطَع اللحوم المتبّلة، تفوح أنواع لا أعرفها مِن البهارات وتحيطنا بغلالة من الحميمية، انتصبتْ بين الأطباق كؤوس من الجعة، وتناثَر نوع من الخبز دخلَ اللبن في صنعِه! استطعت أن أميّز طعمَه عند مضغِه! بعد الانتهاء من العشاء صَب "مو ـ سا" الماء لأمِّه أولا، احترامُه وتقديمه لها أبهرَاني، ولكن الوقت لم يتَّسِع لعقد مقارنات بينه وبين وأخي، حياتِه وحياتنا، كنت ألحظ كل شيء فقط.

في نهاية الأمسية قادتني "تي" إلى حجرتها الخاصة، التي نُصِب بها سرير خشبي تُرِك على لونه، له قوائم على شكل رأس الربة الحامية "حتحور" بأذُنَي بقرة وقرنيها، وقرص الشمس الجليل بينهما، قَبل الدخول معها في حديث أستكشِف به المزيد من أخبار الحياة بهذا المنزل المصنف بقريتنا من منازل النبلاء طرقتْ أمّ "مو ـ سا" البابَ مستأذنة في الدخول، كانت مُمسِكة صندوقًا خشبيًا مفتوحًا، لمحت في صناعته ملامح صانع السرير نفسِه، كان به حُق دِهن، ومشط على شكل زهرة اللوتس المتفتحة، وبجواره ثوب حريري. جلستْ جواري وقد شملتني نظرتها الحانية قائلة:

– مَرحبًا بكِ يا ابنتي في منزلنا

شكرتها على حُسن استقبالها لي، ثم أطرقتُ برأسي إلى الأرض، عندئذ ناولَتني الصندوقَ الخشبي قائلة:

– هدية صغيرة أتمنى أن تنال إعجابك.

لم يكن إعجابي فقط هو كل ما بداخلي، كانت المشاعر الفياضة التي لمستها تسري بين الأم و"مو ـ سا"، و"تي" كشعاع

شمس يسري في العتمة! أدركتُ وقتذاك مصدرَ هدوء "مو ـ سا" ورِقتِه التي طالما استوقفتني، على الرغم من أن شخصية "تي" لم تكن بالمرونة التي تتيح لي صداقتها من اللقاء الأول، لكنها لم تكن نافرةً متعالية!

في الصباح كان أنفي تتبع زخمَ العطور الطبيعي، فوصلت إلى حديقة المنزل، وجدتها مليئة بالأشجار الباسقة، تفوح في أرجائها عطور متداخلة كوّنت في النهاية الغلالة العطرية الخاصة للمكان، خلاف نبات البردى وزهور اللوتس التي تنمو برغبة الإله على ضفاف النهر، كانت المرة الأولى التي أتجول فيها بين الزهور والأشجار، إلى أن وصلت إلى نهاية الحديقة، كانت هناك تكعيبةٌ مقامة من سيقان النخيل المشطورة نصفيْن، مرصوصة على شكل دائرة، أمّا سقفها فقد اتخذ شكلا هرميًا كجوسق التمثال، ابتسمتُ؛ فللعقل المتخَم بالثراء أفكاره الفريدة، أمّا شجرة الكروم التي عرَفتْ طريقَها لفلوق النخيل، فاستطاعت أن تؤكد للناظرين إبداعَ الخالق.

ما زال الهدوء يشمل المكانَ بالخارج، فلا أثر لعجائز يَسكُنَّ الدرب، أو لفلاحِي البكور. خلف المنزل سكنتْ بِركة صغيرة، السحاب يطفو على سطحها، وإوزّ المنزل الرمادي يحاول إغراقه، أمّا المنزل من الخارج فكان مِن حجر الجير الأبيض الناصع المزيّن من أعلى بإفريز من حَيّات الكوبرا، جلست على سور البِركة – قليل الارتفاع – سحبني كلام الكاهن الأكبر بقوة من كل شيء؛ لأفكر فيما عرَضَه عليّ.

هل محاولة تقرُّبِ أمّ "مو- سا" إليّ طبيعية؟، أَم اعتبَرَتْني زوجة ابنِها المستقبلية؟ ربما لم يَقُل لها عن أصلي الفقير شيئًا، انخدعتْ بملابس الخدمة وظننت أنني حقًا أود الانقطاع للإله! الحياةُ التي يحياها "مو - سا" أمَلُ كلِّ الفتيات، وربما أكثر من آمالِهن، فكيف لفتيات دربِنا أن يتمنين ما لم تدركه أعينهن؟ ولكنّ الحال بالنسبة لي صار مختلفًا، في ظل ما بسطَه الكاهن الأكبر أمامي من آمال: مقارَنة منزل صغير بقصر الحاكم لن تكون أبدًا لصالح المنزل الصغير، و " مو- سا " نفسُه إلى جوار

الحاكم قزم معطّل الأوامر، وأنا عند جلوسي بجوار الحاكم سأصبح أميرةً متوّجة.

ربتتْ يَد " مو- سا " على كتفي فطار سرب أفكاري بعيدًا، سمحَ له هدوء الصباح وخلو المكان بإمساك يدِي، لكنى لم أتركها له، استعدتها بسرعة فقال:

- هل ما زلتِ متأثرة بما حدث في اجتماع أمس؟

هززت رأسي بالنفي، فقال:

-إذًا مَن سلبَكِ مرحَك؟

واجهته قائلة بدهشة:

- مرحِي؟!

قال وقد انفرجت شفتاه عن نصف ابتسامة:

- مرحكِ، والتماع عينيك، ودفء يديك.

قلت له وقد ضاقت عيناي إلا مِن شريطين:

- إنك متوهم، فأنا لم تكن بي يومًا هذه الصفات.

قال وقد اتسعت ابتسامته؛ لتثقب هدوءه، وينبثق منه الشطط:

- إذًا لمَن صيغت هذه الصفات إذا لم تكن لكِ، فأنت أجمل مَن عرَفت، حينما يطل الحزن من عينيك تزدادين سِحرًا، وإذا أطل انكسارك تزدادين قوة، وإذا ....

قلت له وثقتي تتلوّى ببطء:

- كفَى أكاد أصدّق.

فرحَ لاستجابتي، تقافَز في مكانه، وقال:

- فلتتأكد ثقتك، إنها أمنيتي أن تُتَوجي أميرةً على عرش هذا المنزل.

وأشار بيده إلى المنزل خلفَه، نظرت في عينيه لحظة، ثم جريت اتجاه الداخل لأمنعه عن المُضِي فيما يقول، وعند عتبة الباب استقبلتني أمّه مُرَحبة.

(10)

كان للأيام التالية طعمٌ محايد، فلا الحزن تَمَكن منا، فنضحَ مِن تصرفاتنا، ولا الفرح بدا علينا بعد أن اختارت الجَدة التخلف عن الركب وأراحت "رخميرع" من تدبير تكاليف وجباتها الصغيرة. الجالسات في الدرب أيضًا، واصلْن جلوسهن دون أن يبدو على جلستهن تَغَيرٌ يُذكَر، وثوبي الذي بدأتْ أفكاري تفتش عنه في الأماكن التي اعتقدت أن أمِّي خبأته به، اندفعتْ أعضائي بفعل قوة أفكاري للبحث عنه، بدأتُ البحث داخل الصندوق الخشبي العتيق بقايا عرس أمّي، فلم أجده، مددت يدي داخل صومعة القمح الفارغة حتى القعر! وقادني تفكيري بغير هُدَى أسفل الحصر، وفى الأماكن المظلِمة والشقوق، قُربَ اليأسِ

هداني التفكير إلى السلة المدلاة من عروق الخشب بحجرة السطح فوجدته. ابتسمت، كان جواري طوال الوقت! ينعش خيالي طوال الوقت! لمسَتْه يدايّ أخيرًا، ثم لففتُه حول جسمي فتوارت قسماته الصريحة لتحل محلها قسمات لَيّنة، تظهر بوضوح أكثر أسفل الثوب، إن الثوب دليل معلَن على جَمال الجسم، أتحدث الآن وأنا أعرف مِن خبرات الحياة الكثير، بعد أن مررت بمرحلة الصبا، والشباب، وما بعدها، ما فكرت فيه سابقًا كان خَطَأ، الثوب ليس سترًا للعورة عن العيون الفاحصة، ليس دليلَ رفاهيةٍ يجذب عقول الشباب لخِطبتي كما كانت أمّي تفكر! الثوب فقط، دليل على جَمال الجسم، ينضم مع الخصر فيعلن عن وجود الخصر، ينفلِت مع الردفين فيشير إليهما، وفي المساحة بين الحمّالتين، تنبت الرقبة حاملةَ الرأس كما لو كانت تويج ساق لوتس يحمل الزهرة المتفتحة! الثوب هو الفتنة الكاملة! العُري الموارَب! أمَا وقد اكتمل نسجه، وصار في متناول جسمي، فَلِمَ لا ألبسه؟ حدّثت نفسي، أمعنت التفكير في أسرع الطرق لارتدائه، أمّي هي مَن تملك مفاتيح ذلك! كيف السبيل إلى إقناعها بسرعة الانتهاء من حياكتِه؟ ظللت أتفوّه بما

يعتمل بداخلي كالمجنونة، أعدت النسيج مكانَه وهبطت درجات السلم فوجدت أمّي جالسة قربَ الفرن، بجوار جدار المنزل الخارجي المطِل على الزروع، كادت تفرغ من إعداد أرغفة الخبز، جلستُ جوارَها بهدوءِ ظاهري، وعقلي يعمل بكل جدٍ في إيجاد الطريقة التي تتحمس بها لحياكة الثوب. لكننا ظللنا صامتتيْن وقتًا، اقتربتُ منها قليلا وهمست إليها وقد رسمتُ على وجهي علامات ذعرٍ مقنعة:

– أمّي لقد رأيت قطرات دماء وحيدة تتدفق هنا وأشرت لها على الجزء الحرِج منى.

لم تتحدث، لكنها تابعت حديثي باهتمام، نقلتْ نظراتها ما بين وجهي والمكان الذي أشرت إليه، ثم نظرت إلى الفرن التي ما زالت متوهجة، وقالت:

– أين آثاره؟

قلت لها:

– اغتسلت منها قبل مجيئك.

لم تتحدث، فعدت للحديث:

– لقد ارتعبت من رؤيتها!

قبل إتمام حديثي عادت، ونظرت إلىّ، ثم قالت:

- فتاة خبيثة مثلكِ لا ترتعب، ألم تنتظري ذلك؟ ألم تطلبي الثوبَ لتخفى به ما سوف تكمله لكِ "حتحور"؟

ثم أضافت وقد أشاحت بوجهها كليةً عن كل شيء حولها:

-إن ارتعابك هذا يُدهِشني!

تركتها، وعدت لمكاني بالسطح، هذه المرأة لا تنخدع بسهولة! عبَرت على حجرةِ زوجة أخي المتكئة على مسند رأسها المبطن بالنسيج، نادتني بلهجة آمِرة لم أملك معها إلا الانصياع، وقفت بعد أن حاذيت الباب، خرجتْ إليّ وقالت بنبرة خبيثة:

- أهملتِ شؤون المنزل تمامًا مؤخرًا، يجب أن تواظبي على المشارَكة للتعلم، كما الربة "حتور" لا تؤجل عمل يومِها إلى الغد.

استوعبتني عيناها مِن أخمص قدمي حتى شَعر رأسي، وأضافت:

- عليكِ مِن العمل مثلما عليها.

ركزتُ عيني في عينها، فارَ فمُها بضحكة، شعرت بغليان، لم انتظر أكثر، ارتقيت السلم سريعًا، وقد بلغ حنقي منها الذروة.

لم تأتِ الأيام التالية بجديد، تصرفاتنا جميعها كانت عادية، ومثيرةِ لزوابع القرف بداخلي، إلا مواظبة "رخميرع" على الذهاب إلى المعبد؛ لتفَقّد حال تجفيف جسد جَدتي، والانتهاء منه تمامًا، ومواظبة زوجة أخي على العناية بنفسها، وأولادها، إلى أن صارت مضربَ الأمثال ليس لنساء الدرب فحسب، بل في القرية كلها! وأمّي وهي تتحمل القيام بمعظم أعباء المنزل، وضغطها المستمر عليّ لمشاركتها فيه.

أيقظَتني تقلبات أمّي القلِقة في مرقدها، والسماء الكالحة التي تطل مِن عَلِ، تذكّرني برحلاتنا السابقة إلى البِركة، لم أُبدِ حِراكًا ينُم على استيقاظي، ولم تدرِك هي يقظةَ أفكاري التي تملأ مضجعي أرقًا وضجيجًا، استقامت بحذر –أدركتُ حذرَها لحرصها على ألا تُحدِث أصواتًا البتة– فزادت حساسية حواسي لكل حركاتها، أمالت الجَرة، فَرَقَّ لها الماء على كف يدها،

ابتلعت جزءًا منه، ومسحت بالباقي وجهَها. كنت أرقبها مندهشة، لا أعرف ما الذي تنوي فِعله! عندئذ، تسللت إلى خارج الغرفة، وسمعت حفيف قدميها على الدرج، وباب المنزل المطِل على الدرب وهو يُقفَل بحذر، لم أكن لأسمعه لولا قياس حواسي لزمن هبوطها الدرَج، وقطعها مسافة السقيفة بأسفل. جفاني النوم متسائلة:

- تُرى أية جهةٍ سلكتْ بكل هذا الغموض؟ وكل الأفعال خافية وراء ستارة الليل.

انتظرتها وقتًا طويلاً، لم تصِح الديكة في الأثناء، لم يَنتصِف الليل بعدُ إذًا! أصررت على البقاء يقِظة، كي أكتشِف حال رجوعها سببَ خروجِها! لكن النوم هجم مِن مكان ما، ولم أستطع معه إلا الاستسلام.

بحثت عن نسيج ثوبي الصباح في مكانه نفسِه فلم أجده. اعتقدت أن أمّي خبأته في مكان آخر، فتوقفت محاولات بحثي، في الأيام التالية عاوَدَتني رغبة رؤيتِه، تَكرر ما حدث سابقًا، فسألت أمّي، لكنها لم تجِب. في تلك الأيام نفسها، أثار "رخميرع"

موضوع الكتّان ثانيةَ بعد أن قدمَ من المقبرةِ في إحدى المرات، واجهته أمّي بعصبية قائلة:

– لك ما شئت في عدم تصديقي، فقط لا تُكرر اتهامك لي مرة أخرى "رخميرع"!

أعاد عليها سؤاله بإلحاح كأنها لم تَقُل شيئًا:

– أين لكما والكتّان يا أُم؟

لم تجِب، وانطلقت تعدو هربًا مِن أمامه، كأنها تهرب من ظل " بر – عا [*] "

أستطيع أن أذكر موكب الجَدة الصامت من المعبد لمثواها الأبدي، اصطحبتني أمّي في الصباح للذهاب إلى المعبد، قابلتنا بعض العجائز المنتظِرات الموت تباعًا في الدرب فانضممن إلينا. لم أعرف إنْ كان سبب انضمامهن حُب الجَدة، أَم واجب يَفعلْنَه اليوم ليجِدن مَن يُحيي طقس الدفن لمَن سيموت منهن في الأيام التالية! سار موكبنا صامتًا، كنا حوالي سبعًا. التقينا

---

[*] **كان من الفأل السيء أن يسقط ظل الفرعون على أحد العامة، ربما كي لا يفكر أحد في الاقتراب منه ومحاولة رؤيته!**

"رخميرع" عند درَج المعبد المؤدى إلى الدور العلوي المبلّط، صعد "رخميرع" الدرَج الحجري، وانتظرنا نحن بأسفل، عاد سريعًا وقد حَمل جَدتي ملفوفةً بذات الحصيرةِ التي لُفّت بها الجَدة قبل خروجها من البيت، ساعَده في حملها أحد الخدم، تقدمنا فسِرنا وراءه، بدأت إحدى العجائز في نواحٍ خافِتٍ، أعقبته الباقيات بالترديد إلى أن وصلنا عند ضفة النهر، لم يستأجر "رخميرع" مركبًا للموكب، كي تدفع كل واحدة أجرةَ انتقالها بنفسها! إنْ أرادت توديع الجَدة! عاد بعضهن، ووقف البعض يرقبننا ونحن نتخذ أماكننا ونوسّد لفافة الجَدة في أحدِها، وتفرقت الباقيات على المَراكب الذاهبة إلى الضفة الغربية، وهناك، وصلنا إلى الحفرة المُعَدة سَلفًا بلا مشقة، ودون أية تعاويذ، أرقَد "رخميرع" جَدتي على جنبها الأيمن باتجاه غروب الشمس قبل إنزالها، وبمساعَدة الآخر الذي قدمَ معه من المعبد، وقفز قبلَه إلى الحفرة، حرّكا ساقيها لتأخذ وضْع القرفصاء، كي يتواءمَ جسدها مع حجم الحفرة! ثم وارياها الرمالَ ونواحُ أمّي على أشده. في رحلة العودة التي انحسرت إلا منى وأمّي والعجائز، كان مشهدٌ صامت تمامًا، كأن العجائز وأمّي دَفَنّ أناشيد حزنِهن مع المتوفاة.

بعد موت الجَدة، كثرَ تسلل أمّي ليلا، كانت تقضي شطر الليل الأخير بالخارج، كان النعاس يغلبني حينًا، فلا أحِس بعودتها ولكنه لم يغلبني أحيانًا أخرى، فأراها بعد العودة بالهيئة نفسها التي أبصرتها بها ليلةَ لقائها بحارس الكتّان: متعَبة، مبعثرة الشَّعر، ناقمة! حتى أنها لم تكن تبالي إذا ما ادّعيت الاستيقاظ من كثرة ما تصنعه من حركة، لكن كل ما فعلته نسيته، عندما فاجأتني يومًا في الصباح الباكر، صدَق حدسي بخصوص خروجها ليلا، أيقظتني والثوب بيدها ناصع البياض، يعكس أشعةَ الشمس المنبعثة من فتحات الجدار ويؤكدها. لن أنكِر أن فرَحي به قلّص إحساسي بمعرفة أسباب خروجها، فالثوب هو الحقيقة التي سوف يراها الناس، أمّا ما فَعَلته أثناء الليل في خروجها السري فكان في طي الكتمان! سألتها وكان لسؤالي شطرٌ خَفي أتلمس منه الحقيقة:

- مَن صبغه لكِ يا أمّي؟

أجابت بفخر:

- لقد صُبغ كما لم يُصبِغ فقير ثوبَه أبدًا! فلقد نال شرفَ صباغته بمصبغة الحاكم، مثل ثياب زوجته وبناته.

سألتها والحيرة الظاهرة على وجهي لا أثر لها بأعماقي:

- أين نحن مِن مصبغة الحاكم؟!

أجابت وقد تحوّل وجهها إلى كتلة جمود ألِفتَها، وأدرِك متى تكسو وجهَها بها:

- إنه حارس الكتّان الطيب، الذي أهدى لنا حزمَ الكتّان، أتذكرين؟

قلت لها ومزيد من النهَم لمعرفة الأكثر ينهشني:

- إنه حارس الكتّان، مالَه والصباغة؟

فردّت:

- جامَلَني بصباغة الثوب؛ إتمامًا لمعروفه.

صمَتُّ وصمَتتْ، ونظراتي التي تَفضح اطلاعي على كل ما دار تَفضحني!

لم تدع لحظةً تمُر، وجدتها وقد أحضرت سلفًا مقصًا مسنونًا من معدات "رخميرع"، شرعتْ في قَص الثوب وحياكته، وما إن غربت الشمس إلا وكان قد اكتمل، آه، المرور على هذا الموقف وتلخيصه عظيم في نفسي، تعلقت عيناي به وهو يتشكل، ولم أشأ مُطلَقًا أن تقُص منه الفائض، وددت أن تُبقيَه بالداخل، ويستطيع الخيط والمخيط إخفاءه، ولكنها أرادته –كما قالت– عملاً عظيمًا! وعندما استخدمتْ شرائط الفائض من النسيج ضفيرةً متقنة لتكون حمّالتي الكتفين، انتهى العمل، وعَببت مِن الهواء ملء رئتي!

لملامسة الثوب بجسمي إحساسٌ ممتِع، انزلقَ عليه، وانحدر بنعومة إلى أن غطى ركبتيّ، استقرت حمّالتاه على كتفي المستديرتان، فكان مربع صدري منيرًا، عند الخصر كانت أمّي قد سحرت الخيوط، فعرفت طريقها جيدًا، وعلمتْ سلفًا نحافة خصري، فاستعدتْ له، والتفاف الثوب الذي ينفرج مع خطواتي ويضيق، فيُظهِر استدارة الجسم ورشاقتَه، وصلتْ ثقتي بنفسي أعلى قمتِها بارتدائه، وانتظرت الصباح الذي سوف يأتي على

صديقاتي فيرونَني وقد ارتديت مِن آيات "رع" أروعَها، وتزينت مِن "باستت" دلالها، ومِن "حتحور" ورشاقتها، ودقة صنْعِها. لقد كان موسم إزهاري، حصدت رؤوس الفلاحين في الحقول، أمّا العجائز في الدرب فقد اتسعت عيونهن لتشمله، كأنه بحجم الأرض!

(11)

استطعتُ أن أسكن قلب أمِّ "مو ـ سا"، فعامَلَتني بمودة، لكن أسئلتها بخصوص أسرتي كانت تضايقني، رغم ذلك رددتها جميعًا، وبصراحةٍ متناهية، لمست مِن بعض كلمات تفوهتْ بها اطلاعَها على حالي، ظننت أن الصدق في هذا الموقف نوع من الثقة!

فَجرًا في طريق العودة إلى المعبد، كان الهواء المنعِش يعبث بخصلات شَعري، ويدس طرف ثوبي بين فخذيّ، فيجسّد انحناءاتي بدقة، اقترحَ "مو ـ سا" الذهابَ إلى ضفة النهر كي نلهو قليلا قبل الرجوع إلى روتين الخدمة، وافقته فإذا بالنهر ينتظرنا، تقدمتُ وسط الحشائش والأزهار التي نمَت هنا وهناك

إلى المياه أغرف منها بكفّي، أغسل وجهي، وأرطب كتفي. ظل "مو ـ سا" يلعقني بنظراته، شعرت بقليل من الارتباك، رششتُه بالمياه فضحك، تناوَل يدي؛ لنعود إلى طريق المعبد، وأسراب الطيور المائية، وأفراس النهر العائمة تودّعنا، تساءلت وقتذاك: هل أحِبُّه؟

تركنا بساط أزهار اللوتس وأدغالَ النهر وراءنا، خَطت أقدامنا بوابة المعبد فانفصل كلٌّ في طريقه، عدت لأدواتي في الحجرة، أُعِد المَباخر بوضع جمرات خشب السنط أسفل المَبخرة، وفوقَها مباشرة أرُصّ قِطعًا من خشب الصندل، مع الخشب المشبَع بالزيوت العطرية المُعَدة في حجرات المعبد الخلفية، ثم إضافة قليل من الحَبّهان، ولِبَان الدكَر، والمُر، والسمار الحلو، وزيت الخروع، كي تفوح الرائحة المعتادة.

بعد أن حمل الخدم المَباخرَ لوظيفتها الطقسية في ذاك اليوم، دخل إلى الحجرة المشرِف على حجرات المعبد، أبلغني بموافقته على ما قاله له "مو ـ سا" من رغبتي في الإقامة بالمعبد

وتخصيص حجرة صغيرة لتشارِكني فيها إحدى الفتيات ممن لهن عملٌ بالمعبد، شكرته، ألقى حديثه وانصرف، فحمدت "لموسا " صنيعَه. وفي استراحة الضحى، شنفتْ أذُني الأصواتُ المنبعثة من حجرة الموسيقى، كان لحنًا متناغمًا، بدأت الموسيقى تعزف للقيثارة التي دومًا ما رأيتها على رفوف الحجرة، وقد نحتت على شكل فتاة جميلة ترتدى النمس والصدرية، استغل النحات اعوجاجَ ناب الفيل الضخم – المصنّعة منه القيثارة – فشد بين طرفيه أوتاره، ثم تلاه الهارْب بنغماته، تداخلت النغمات وامتزجت، ثم تعالت نغمات الناي حزينة؛ ليكتمل اللحن، ويترقرق معهما في جدول النغمات. اللحن ظل يعلو ويعلو إلى أن تحركت الصلاصل والصنوج معلِنةً عن بدء الإنشاد، ثم وجدت الفتيات بأصواتهن يشاركن الآلاتِ ألحانها! توقعت أنها الأنشودة التي ستشدو بها الفتيات أمام الحاكم. كانت رقيقة، ناعمة، تستطيع الآلات معها أن تعزف بمفردها، وبتشجيع العازفين لها فقط:

"احتفِظ بمحبوبتك جالسةً إلى جانبك دائمًا

لا تجعل الموسيقى أو الرقص يتوقفان.

مُرِ الهمومَ بالانصراف
لا تفكر في شيء غير السرور
إذ سرعان ما سيأتي دورُك
لترحل إلى عالَم السكون"

لم أفكر أبدًا في الذهاب إلى حجرة الموسيقى، بعد أن اتضح لي الدور الآخر للكاهن المشرِف، ولكن الموسيقى تفرض حضورها عليّ، جلست في أقرب ظل للحجرة، صانعةً من ساقَيّ هرميْن صغيرين، ربعت عليهما ذراعيّ، ثم أسندت ذقني عليهما وانصرفتْ نظراتي للباب، ألقف كل ما يخرج منها مِن نغمات! خرج الكاهن المشرِف، سار إليّ حتى وقف أمامي مادًا لي يدَه، مددت يدي دون كلمة! رفَعَني فانتصبتُ أمامه، أمرَني بعد ذلك بالسير وراءه لحجرة الأواني الخاصة بي!

مِن حجرة الأواني الخاصة بي إلى دَخلةٍ صغيرة غير ملحوظة بالحائط، ما إن مَد إليها يده حتى انفرجت عن حجرة صغيرة مخصصة لحفظ أكياس البخور، ومنها إلى باب مؤدٍ إلى

دهليز طويل صُفّت على جانبيه طاقاتٌ ينبعث منها الضوء، في نهاية الدهليز كان الدرَج الحجري المؤدى لأسفل معتمًا قليلا، أمسَكني مِن ذراعي وهبطنا الدرَج ببطء إلى أن استدار، وأفضى إلى دهليز أكثر عَتمة، سِرنا عكس اتجاه السير بأعلى، قليلا وظهر الضوء المنبعث من حجرة جانبية.

في الحجرة الجانبية المضاءة، وجدت الكاهن الأكبر مسترخيًا إلى كرسيه الآبنوس الأسود، مادًا ساقيه أمامَه، وقد استراحت قدماه ونامتا في خُفٍ من قماش مزركش، ابتسَم لمرآي، لم يُصِبني الاندهاش لرؤيته، لأنني توقعت ذلك تمامًا، كأني أرسم لهم خطواتِهم، أشار لي بالجلوس على الكرسي المواجِه لكرسيه، وأشار إليّ الكاهن المشرِف بالانصراف، وعندما هرول مسرعًا إلى خارجِ الحجرة، أولاني جُلّ اهتمامه وقال باسمًا:

- أمَا وقد صرنا وحيدين، هل فكرتِ فيما عرضتُه عليك؟

لم أجِب، لكن عينيّ جالتا في الحجرةِ التي اصطفت بصناديقَ كثيرة، وضع بعضها فوق بعض بنظام، أمّا الصناديق التي

صُفّت بجوار الحائط الشرقي لباب الدخول، فقد ارتفعت أغطيتها ليَظهر لعيني ما فيها، كان بعضها مليئًا بالحُلي التي لم أشاهِد مثلها من قبل، والزبرجد، والمرجان، والعقيق، والمَفكات، واللازورد، هذه الأسماء علِمتها فيما بعد، وأخرى اصطفت فيها قوارير الزيوت العطرية، وطيور منحوتة من الخشب ذات تجاويفَ صغيرة، لها غطاء قابِل للحركة خَمّنتُ أنها حقوق للدهون، لِمَا لها مِن تَشابُهٍ والذي تمتلكه زوجة أخي، وصناديق لجِرار البيرة، وأخرى للفائفَ ضخمةٍ من الكتّان! زاغت عيناي، لكن قهقته العالية جَمعت شتاتي مرة أخرى! مَد يده إلى وجهي فأداره تجاهه وقال:

– أمَا وقد صرنا وحيدين؟

قلت له ونظراتي بعيدة عنه رغم ثبات وجهي تجاهَه:

– لم أفكر يا سيدي فيما عرضتَه عليّ.

تَجهّم وجهه، وضغط بأصابعه التي كانت رقيقة، وقال:

– هل لكِ الجرأة على قول هذا؟

ارتعشَ قلبي ولكنى احتفظت بثباتٍ ظاهري، أدركت أني ألقيتُ حجرًا في هدوئه فتعَكّر، تراجعت عما قلته بهزاتٍ رأسي يمينًا

ويسارًا، لكنّ أصابعه المنغرسة بقسوة في وجنتيّ أعاقت خروج كلماتي، نظرَ إلى عيني وقال:

– اعلمي يا فتاة أن بقاءكِ هنا مرتبِط بتلبية ما أطلبه منك.

أدركت وقتَها أنه صورة أخرى لحارس الكتّان، وأني لا بدّ أن أكون أمّي؛ لأجد لي قَدمًا في المعبد، قلت له بصعوبة:

– أنا مدِركة مكانتك تمامًا، لكنه الخوف مِن افتضاح الأمر.

أدركَ تراجعي فأرخَى يديه عني، وقال:

– لكِ ما تشائين، إمّا أن ترحلي الليلة، فلا أرى عينيك الجميلتين ثانية، وإمّا أن تذرِفي دموعَ ندمكِ عند قدمِي.

انزلق جسدي عن الكرسي، وركعتُ أمامه، قائلة:

– أطلب رضاك يا سيدي، الآنَ أقدّم لك فروضَ ولائي.

عاد الاسترخاء يملأ وجهَه، ثم قال:

– ليس الآن بل الليلة، تستطيعين الانصراف.

قاومت بشدةٍ إحساسَ المهانة، وقفت أمامه، هممت بالانصراف، جاءني صوته:

– مِن هنا، وأشار إلى سُلّمٍ خشبي بجوار الحائط، وقال:

– احمليه، أنتِ عفية بما يكفي.

أطعته فيما أمَر، أحضرت السُلّم ووضعته حيثما أشار، وهو يكمِل:

– الآن تستطيعين الصعود.

اتسعت عيناي بقوة، نفذّت ما أمَر به، قرْبَ سقف الحجرة كان هناك جزء لم يُستخدَم الحَجر فى بنائه، استعاض عنه البنّاؤون بالخشب، الذي له لون الحَجر وسُمكه، حرّكتُه فاتخذ مكانه جانبًا، ظهر اتساعٌ يسمح بالعبور، ازداد اندهاشي، كانت حجرة الأواني التي تخصني، صعدت إليها، وأعدت لوح الخشب المتنكر لسابق مكانه، قَبلَها لمحت وجهه وهو ينظر لي، وابتسامته تملأ وجهَه.

حاولت البكاء، ولكن عينيّ لم تعتادا ذرْفَ الدموع، جلست مستنِدة لحضن الحائط، أشعر بفوران في أحشائي! وعندما دخل "مو ـ سا" عدت لهدوئي مجبَرة. ظل يتحدث، كنت أرى شفتيه ولا أسمع كلماته، نظرت إلى سَلة أشيائي الراقدة في سلام لا تَعِي ما

ينتظرني، وينتظرها، ولـ "مو ـ سا"، وصمْتي يفترس كلماتِه. المقارَنة فرضت نفسها على تفكيري، منزلنا الذي بُنيَت معظم حوائطه من البوص المكسوّ بطبقة طين، وأخي وزوجته يُحَجِّمانِ فيه سُلطتي، ومنزل "مو ـ سا" المُهَدئ لضيق نفسي، أمّا الـ "بر ـ عا" القائم على ضفة النهر هناك فيذكر كل المنازل بشموخه، ووضْعي كفتاةٍ فقيرة تسكن دربًا مَنسيًا، أو زوجة لـ "مو ـ سا" متوّجة على عرشٍ وهْمي، أَمْ أميرة لها كامل سلطانها، تأمُر وتَنهِي شعبًا بأكملِه.

(12)

تَحركَ الشيخ في الحجرة، كل ما فَعله كان إنزال سَلة عِظامي مِن مكانها على المنضدة إلى الأرض، بعد أن فحص العظام بمرآة لها إطار مستدير، تطِل منها عيناه علىّ كبيرتيْن كبيرتيْن. لم أعُد أهتم، نخَرَني سوس يأسى حتى النخاع، بِتُّ أعلم أن الغضب لن يُجدِي، صار الغضب كالنطْح في الجبل.

دَخَلَت زوجته الممتلئة إلى حجرته، ثم دار بينهما الحديث التالي:

– هل وجدتَ ما تنشده في هذه العظام؟

أجاب دون أن يرفع لها وجهه:

– لا، يجب أن أبحث عن عظام أخرى بها المواد التي أبتغيها، أمّا هذه العظام وإنْ كانت مِن قرون موغلة في

القِدم، لكنها لم تُحَنط كما يجب، لم تَحتوِ على المواد*
التي أُجرِي بحْثي عليها، ربما انتمت لفقير معدَم!

تساءلت المرأة بعد أن أدركت أنها وجدت ما تريده:

– إذًا لن تحتاجها؟

فقال بلا مبالاة:

– لا!

نظرت المرأة إلى سَلة عظامي وقالت:

– سوف أرسِل لك الخادمة لتحملها وتلقى بها في الفناء الخلفي.

خَرَجت المرأة دون حديث آخر من الغرفة، قليلا وحضرت الخادمة، حملت سَلة عظامي إلى فناء مكشوف، قام الفرن في جانبه، كان مُظَللا بعريشة من سعف النخيل المحمول على أعمدة رفيعة من الآجُر، أمّا الجانب الآخر للفناء، فكان

---

*يقصد مواد التطهير المستخدمة في التحنيط، لهذا قام الصيادلة بالبحث عن المومياوات في عصر لاحق للعصور الفرعونية، كي يستخدموا مسحوقها في علاج الجروح!

مُخَصصًا لحيوانات المنزل ومُظَللا أيضًا بعريشة مشابِهة، وبالقرب باب مفتوح يُفضِي إلى الزراعات

ذكَّرَني هذا الباب ببابنا المواجِه للزراعات أيضًا، وتسللي بثوبي الذي التمع في عيون مَن قابَلَني، ذهبت به إلى أقرب صديقاتي، حدّثتها عن رغبتي في العودة للعِب معهن، متعللةً بأن ما شغلني عنهن أعمال المنزل الكثيرة، سألتها عن أحوال باقي صديقاتنا، صدمَني أن مقابلتها لي اتسمت بالفتور، لم تنظر إلى ثوبي أبدًا كأنها لا تراه، كأنها ما زالت تراني عارية، لم أدرِ حقيقة ما يدور بداخلها، ولكنى لم أترك الفرصة، قلت لها إنه باقي نسيج أعطاه لي أخي- حصل عليه نظير عملِه لدى الحاكم، فحاكته لي أمّي ثوبًا- وضعت كلماتي في فمها ؛ لتنطق بها مع باقي صديقاتها، وتُخبِرهن بمصدر الكتّان، فتبْرَأ ساحتي، وربما ضايقَني تجاهلها لي، فحاولت لفْتَ انتباهِها بطريقتي! لم أعُد أذكر سبب إقدامي على ما قلتُه!

مرت الأيام بعد ذلك وبمرورها كان الثوب يَفقد بريقَه، لم يحقق لأمّي ما تمنته، قلقها كان يزداد، لماذا لا يراه الناس، لماذا ظلوا يصنّفوننا مع الفقراء؟ لماذا لم يتقدم أحد لخِطبتي؟ كانت أسئلتها تلتهِمني كلما أوجَدَنا المكان معًا! كنت كالقمر يَطلب الناس ضوءَه فقط، أمّا القمر نفسه فلم يكونوا في حاجةٍ إليه، هل هذا التشبيه انطبق عليّ بالفعل؟ لا أدري ولكن الأنظار كانت تنهال عليّ إذا مررت، يمتدح أحدهم نهديّ، ويمتدح الآخرون ساقَيّ، تسري حالة من المرح بينهم، حالة لم أفهمها! هل رفعني ثوبي بعيدًا عن آمالهم؟ هل اكتشف الناس مصدرَ الكتّان، أسئلةٌ كثيرة لم أجد لها إجابة! لكن، لم يتذكرني أحد إذا لم أمُرّ!

زوجة أخي لم تَعُد ترقد في حجرتها، بل في أفكاري، كنت أراها دومًا تتحرك في عقلي، وتُخرِج لي لسانها. حتى صديقاتي، لم تحضر أي مِنهن كما كنت أرغب، لمحتُهنّ في عيد الربيع وقد تجمّعن قبل الشروق للاستحمام في النهر، ودعْكِ أجسامِهن بالغُبَيراء، وددت لو أخرج لهن عارية – كما كنت – فأشارِكهن مرحَهن، لكن قدمَيّ لم تأخذاني لمكانِهن، بل ذهبتُ بعيدًا،

سبَحتُ وحيدة إلى أن مللت المياه، خرجت من النهر، والمياه تقطر مِن جسدي كالدموعِ، وترسم على الأرض اتجاه سيري، عدت إلى المنزل بجسمي العاري، وعندما وصلت فاجأتني أمّي قائلة:

- أين ثوبك؟

استدركت الأمر، وأرسلت أحدَ أبناء أخي؛ لإحضاره!

(13)

لن يرتقي وصْفي مهما كنت دقيقةً إلى بهاء الاحتفال: المَركب الذهبي اللامع في سريانه البطيء يحرص على بقاء صفحة النيل هادئة! لم أصاحِب العازفات، ولم أغَنِّ، بل بأمر الكاهن الأكبر – صرت المشرِفة على الاحتفال كله، بارتفاع إصبعي تبدأ جميع العازفات في العزف، وبذات الإشارة يبدأ المُغَنون، وبإشارة عيني يتقدم "مو ـ سا"؛ ليفرد هداياه أمام الحاكم. قَسّم حيزوم* المركبَ إلى ثلاثة أقسام، تَصَدرها المكان الذي جلس فيه كلٌّ مِن الحاكم وزوجته، التي تزينت بالألوان في صفحة وجهها وشفتيها، أمّا الملابس فكانت مِن أفخر ما رأيت، جلس جوارَها الحاكم وقد أحاط به وقارُه وهيبته، يُمسِك بيده "الأواس" وبالأخرى "المَقمعة" وقد ارتدى النمسَ الكتّاني؛ ليقيه حَرّ العراء. جلس خلفَه الكاهن الأكبر وقد انحسرت نظراتي عنه

* حيزوم المركب: صدر المركب المكشوف.

تمامًا، فلم أشاهِد سوى شبحِه، أمّا الكهنة المرتِّلون، فجلسوا في القِسم الآخر، وفى مواجهة الحاكم وزوجته.

فَرغَ الجزء الأوسط للعروض المتغيرة، و"الكوثل[*] و"الشراع" يظلله، بارت العروض بجَمالها طبيعة المكان، لم يكن لي مكانٌ محدّد، ولكنه تغيَّرَ وفق هواي، ولم تكن زينتي زائدة كالتي كانت لزوجة الحاكم، اكتفيت في المساء السابق للاحتفال بدعْكِ جسمي بالعجينة التي أعددتها من القمح نصف المطحون، والماء الساخن، فرشتُها على جِلدي، فلملمت منه الشعيرات الزائدة، وتركته لامعًا، ثم أكملت له زينتَه بالماء ومِلح النطرون، أمّا الدِهان، فشكرتُ لأم "مو ـ سا" ما زوَّدَتني به سلفًا.

كان للاحتفال خطتُه التي رسَمها الكاهن الأكبر له سابقًا، سارت بالنظام والبهجة اللتين تمناهما له، فلم يخدش جَمالها خادش، وكنت مِن البساطة والثقة بما جعلاني بؤرةَ الاحتفال، وفراشتَه المتهادية! صدَقَ حدسي فكنت الفتاة نفسَها التي

---

[*] الكوثل: عمود الصاري.

حصدتْ أنظار العامة في السابق، وما النبلاء سوى عاديين يجذبهم جمالي وثِقتي! عند الظهيرة توقف الاحتفال لتناول الغداء، آه، كان مِن الممكن أن تَظل تفاصيل الاحتفال ملتصقة بالذاكرة، لكن ما حدث بعدَه طغى على ما سبقَه، وهو الأجدر بالتذكر.

انتهى الاحتفال قربَ الغروب، شققت الهواءَ عائدة إلى المقصورة القائمة في أول المَركب، كانت عِبارة عن قوائمَ خشبيةٍ تُمجّد لصانعها يدَه الماهرة، مسقوفة ببراطيمَ من خشب الأرز، مغطاة بطبقة من الذهب، وسط السقف كانت الشمس المستديرة، وأذرعها الممتدة مسيطرة، مُدلّى منها الستائر التي تداعِبها الريح القادمة من الشمال، خُصِّصت هذه المقصورة لراحة فتيات المعبد، في تلك الفترة التي ينتهي فيها الاحتفال، ولم يَصِل المَركب لمرساه أمام قصر الحاكم.

على أريكةٍ ناعمة أسندتُ جنبي دقائق، لكن، مِن شق الهواء نفسِه دَخل الكاهن الأكبر يدعوني بيده، أجبرت عيني فنظرت إليه، فأسَرّ لي بما رسم البسمةَ على شفتي.

في طريق العودة سارت الفتيات إلى المعبد، يَسبقهن الموكب المَهيب لزوجة الحاكم. أمّا الكاهن الأكبر ودماؤه المتدفقة تعكر صفحة وجهِه، فسارَ أمامي حيث الحاكم الذي أمَر بإحضاري، مثلتُ أمامَه في مقصورة المَركب الأخرى – والتي تضاءل جَمالها أمام المقصورةِ الأولى– متكئًا على الأريكة ورأسه بين مسند الرأس الآبنوس، وجِرار النبيذ، وصندوق كتاب الموتى بركنٍ قَصِي، أمَرني بالتقدم بإشارةٍ مِن يده. خفق قلبي – رغم ثقتي – خفقانَه الشديد قائلا:

– ليس لهذه الهدايا أي صدَى بنفسي؟ إن مخازني مثقلَة بأروعَ منها!

لم أجِب، هل كان لسؤاله إجابة؟

عاد إلى حديثه، وقال:

–أجبينني يا فتاة، ما هي أفضل هديةٍ وقعت عليها عيناي اليوم؟

كنت مدرِكةً مغزى تلميحاته، لكنى تصنَّعت السذاجةَ المفضلة في هذه الحالة، وقلت:

- إنّ عقلي الصغير يا مولاي لا يبارِي عقلَكم الكبير في أفكاره.

قَهقهَ ضاحكًا، فطنَ لوجود الكاهن الأكبر، فأمَره بالانصراف، عاد لي بكل انتباهِه وقال بطفولة ونزق كبيريْن:

- أنتِ أجمل هديةٍ وقعت عليها عيناي اليوم.

ظهرت ابتسامتي رغمًا عنى، كانزلاق ثمرةٍ ناضجة من شجرة امتلأت ثمارًا، وذهبتْ لمن يريدها، عقلي المتقِد لم يغفل فِعل النبيذ والهواء المنعِش برأسه، ولم يُضِع الفرصة، فقلت له:

- ما أنا سوى خادمةٍ بالمعبد، أجاوِر ساكني الجحور، ودواب الأرض.

قال:

- كانت الجحور جنةً بوجودكِ حتمًا، لهذا- هؤلاء المساكين- لا يسعون للعيش فوق الأرض؟ مِن الآن ستجاورينني.

لم أنطِق، هل ما قاله لي هذيانُ الخَمر؟ هل طرحَ الربيع ألوانَه عندي؟ تقلبت الأسئلة بصفحات عقلي، كلما طويت صفحةً واجَهني سؤال آخر، تخَطيت كل الاستفهامات وتساءلت: ماذا

يريد الحاكم مني تحديدًا؟ أمعنت في استنزاف كلماته، رددت سهامَ شَكّي بدِرع صراحتي قلت له:

– مولاي أنا لن أكون مَحظية، هذا دور أكره القيامَ به، هذا إن سمحَ مولاي لي بالحرية.

فأجاب بتهجمٍ قليل:

– وإنْ لم أسمح يا صغيرة؟

لانت ملامحي، صار لصوتي صفاتُ التوسل، وأجبت:

– ليس أمامي سوى الانصياع لِمَا تأمر.

بدّلَ ملامحه الجادة بملامحَ حانيةٍ وقال:

– إذًا فلنأمُرْ للكاهن الأكبر وأحدِ الكتبة بالمجيء؛ ليسطر وثيقةَ زواجِنا!

قلت وإصبعي مرفوعة أمام وجهِه ومصاحِبة لكلماتي:

– وأخي "رخميرع" " يجِب أن يحضر، إنه القائم على أمري.

قال وابتسامته الحانية تتابع إصبعي:

– "رخميرع" " يجِب أن يحضر أيضًا.

في المساء اتخذت كامِلَ زينتي كعروس تُزَف للحاكم، بمعرفة زوجته أو بغفلتِها، كررت فِعل الليلة السابقة من عجينة القمح ذاتِها، والاستحمام بالماء والنطرون، ولكن الوصيفات قُمْنَ عني بفعل كل شيء، تولّيْن رحلة تزييني لأول مرة، هذّبت الخادمة بملقاط فِضي صغير شعيراتِ الحاجبين الخارجة عن حدودهما، رسمتْ عينيّ بالكحل كعين ظبى، أحضرت حُقًّا به مسحوق أحمر فرشته على وجنتيّ، دعَكَته بنعومة ليشملَهما، أمّا يداي وقدماي فقد دَخلَتا في عجينة الحنّاء، مِن حُق المرمر الموضوع في الصندوق الكبير القائم بركن الحجرة، دهنت بشرتي بالعطور المخلوطة المعتقة، في النهاية ناوَلَتني الخادمة المرآةَ البرونزية التي أكّدت لي جَمال صنعِهن، وجَمالي.

عندما انتهت الخادمات أمرتُهن بالانصراف، سِرت على أطراف أصابعي، أفحص الصندوقَ الحاوي لمواد الزينة، وأضحك؛ فالصندوق المهدى لي من أم "مو ـ سا"، والمَنسي هناك بحجرة الأواني في المعبد أشبَه بنموذج الإيضاح المُصَغر بالنسبة لهذا الصندوق.

بمجردِ الانتهاء من زينتي، أرسَلَ الحاكم في طلبي، ما إنْ دخلت القاعةَ الرئيسة بالقصر حتى واجهتُ "مو ـ سا" على الأريكة، جلس القرفصاءَ ولوحُه مفرود على قدميه، والريشة بيدِه؛ تأهبًا للكتابة، في مواجهته كان الحاكم، والكاهن الأكبر، و "رخميرع" " بانتظاري.

انتهت مراسم الزواج، كان أكثر ما بقي من آثارها تلك الصُفرة الزاعقة كالزعفران والتي كسَت وجه "مو ـ سا"، وفاضت،" رخميرع" أيضًا كان وجهه كحَجَر الجرانيت، انصرف بعد انتهاء المراسم مباشرةً، فلم يُتِح لي فرصةَ السؤال عن أمّي، أمّا الكاهن الأكبر، فلم تَسقط عليه نظراتي، مثلما لم تَسقط عليه في الاحتفال، لكن أسباب انحسار نظراتي اختلفت، فلقد انحسرت عنه نظراتي في الاحتفال لإحساسي بالتضاؤل، أمّا الآن فغَمَره تجاهلي واحتقاري حتى أُذُنَيه!

(14)

كان للمكان الجديد ميزةٌ كبرى، أطلت السماء صافية، والشمس تجدّف فيها بثقة حتى شملَني شعاعها، اخترقتني حتى النخاع، بدأتُ في الدعاء وتلاوة التعاويذ، كيف لا أتلو والشمس الحانية أسقطت لي سُلّمَ أشعتِها قويًا؟! تبسّمَت الشمس في السماء، فاستبشرتُ خيرًا، والحركة تدب في منزل الشيخ رويدًا رويدًا، فللشمس في هذا الموضع من السماء تأثيرها لإيقاظ النائمين!

أيقظتني يد الشمس، تسللت أشعتها مِن نافذة حجرتي بالقصر، خرجتُ للشرفة المطِلة على النيل والجبل في البعيد، ومقابر العامة في الجهة الأخرى، تُرى كيف حال أمّي؟ تخوفتُ من السؤال عنها فيدرِك الحاكم حالَها، تركتُ موضوعها مَنسيًا، لكنه يطفو بين الحين والآخر، أو عندما أبُصِر موكبًا جنائزيًا

متجهًا لمقابر العامة، أمّا وصيفتي الوفية، فلقد أمرتُها مراتٍ بالذهاب إلى منزلنا وتزويد أخي وأولاده بما يريدون، ولكنى حرصت على ألا تشتمل هداياي على مستلزماتٍ لزوجته، مع مرور الوقت، تضاءل إحساسي تجاهَ زوجة "رخميرع" تدريجيًا، ألهَانِي ما اعتزمت على تنفيذه لإنعاش نفسي وبناءِ مجدي عن كل أحاسيس حنقي السابقة، لن أفكر في إظهار نفسي ليروا ما وصلتُ إليه، يكفيهم مِنى التجاهل.

كَم مَر من الوقت وأنا سعيدة، وحُمرة النعيم تسيل وتفيض، ووصيفاتي يتجمّعن صباحًا فيتبارَيْن لإظهار جَمالي وتزييني، أخرجُ إلى فناء القصر الخلفي حيث المَثَّال بانتظاري، أجلس أمامَه وقتًا يسمح له بدراسة صفاتي التشريحية الدقيقة جدًا على حد قولِه، والتي سوف تتيح له إخراجَ تمثالي؛ ليُضاهي الحقيقة جَمالها، كان شابًا قويًا أسمر، ذراعاه مفتولَتا العضلات، والإزميل في يده، يُخيف به صلابةَ الحَجر، فيَلِين له.

قررت أن أخصص اليوم الأول من كل شهر لمتابعة العمل في مقبرتي بتاج الجبل، بعد أن سمح لي الحاكم باختيار مكانِها، اخترتها في الوسط بين مقبرة الحاكم وزوجته الرئيسة ومقابر أولاده، كان المكان أشبَه بدرة التاج، داعبتُ الحاكمَ بهذه الملاحظة، فأطلَق عليها "درة تاج الجبل". كما أسعدني الحاكم كثيرًا في احتفالات النسِئ: ذهبنَا في رحلات الصيد للفيوم الجميلة، يَغرز الحاكم رُمحَه بقوة في أفواه أفراس النهر المهاجِمة، فيصيبها في مَقتل، استطعت اصطيادَ بعض الطيور حينما سَقَطت في الشِّراك التي نصبتُها لها، وشاركني الحاكم في شوائها، وخرجنا معًا، سِرت في دروب القرية، تهافَتَ العامة لرؤيتي. هل تذكرونني؟ أنا ميريت ابنة درْبِ الفقراء! لا يهم، الآنَ يدعو الجميع لي بالسعادة، كلما أخذوا ما احتاجوه من الهِبَات! وحينما يختفي الحاكم ليُسعِد زوجته الأخرى، أُوكل مهمة إسعادي لنفسي ووصيفاتي والعاملين عندي، بل ولشعبي جميعه، وعندما وصل التمثال لمراحلِه الأخيرة، كان لا بدّ لصقلِه من رمال خاصة يجلبونها من سرابيط الخادم، استعان المَثَّال بكل

براعته وقوته، كلما تأكد الحَجر من تفوق يدِه استسلم، فخرج التمثال مشابِهًا لي تمامًا.

ما الذي استجَد؟ ما زلت لا أفهم! فقط، كان للحاكم نظراته التي لم ترِحْني مؤخرًا، سألني لأول مرة عن انقطاع زيارة "رخميرع"، وقتذاك أجبتُه بثقة:

– ربما تَدنِّي وضْعِه الاجتماعي يُحرِجه مِن الظهور أمام الحاكم!

لم أقلق، تدربت جيدًا مثل أمّي على الجمود في مثل هذه المواقف، كل ما حدثَ في السابق كان مجرد تمرينات كي أمتلك القدرة على الرد أمامَه، لكن سؤاله التالي أثار بداخلي الاضطراب، عندما سألني:

– وكيف حال أمِّك؟

أجبت بكلمة واحدة، سألته بها عن كل ما ساوَرني من اضطرب:

– أمّي؟

بعد ذلك انصرف، لكن الأفكار لم تنصرف وراءه.

في عيد الربيع التالي، كان تَجهمُه على أشُدِّه، جهرَ بكل ما كَنَّهُ داخلَه من ضيق تجاهي، ولكنه لم يَجهر بالأسباب، هل كنت أقَلَّ مِن مصارحته لي بالأسباب، وأنا التي كان لي الكلمة المسموعة، إذا ما ظهرت انحنت لي قامات الجميع؟ لم أشعر أثناء رحلة المَركب بأي مذاق، اختصَر الحاكم الرحلة رغم امتداد صفحة الماء أمامَنا، ورغم محاولاتي لاختراق تجهمِه وإذابته، في النهاية أرسلت بصري هربًا من نظراته المسلّطة عليّ إلى ضفة النهر حيث الأزهار والبردي، المكان نفسه الذي التقيت فيه "مو ـ سا"، رأيت طيفيْنَا، يداعِب كل مِنا الآخر برشِّه بالماء، يشنف أذُني حديثُه الناعم، ويرعِش يدَىّ بحراره يدِه، عدت بوجهي لمكان الحاكم ونظراته تثقبني كسهامٍ مسنونة، وتفتش بداخلي عن شيء يريده، هل اكتشف علاقتي السابقة " بموـ سا"؟ الكاهن الأكبر كان مُطّلِعًا على كل الأمور، حتمًا سرّبَ أحدهم إليه أن "مو ـ سا" كان يُجلِي الأدواتِ بديلا عني! هل علِمَ بما حدث بيني وبين الكاهن الأكبر؟ كاهن الموسيقى عليم أيضًا بدبيب النمل في الجحور، قادَني ليلتَئذٍ مِن يدي إلى غرفة الكاهن في باطن الأرض! هل وصله حال أمّي وحكايتها مع حارس كتّانِه؟

أدْرِكني يا "رع"، انثرْ عليّ من الطمأنينة القطراتِ لأهدأ، هل أذهب إلى الحاكم، أحكي له بنفسي كل ما حدث؟ لم أقترف خَطأ واحدًا منذ زواجه بي، الأميرة لم تَعُد تُخطِئ!

في الصباح التالي، أرسلت خادمتي إلى المعبد بلفائف الكتّان، وهبتها لكل الفتيات العاريات بالدروب المَنسية، وفتحت الـ "شنوتى" لمن يريد الغلال. أمّا الحاكم فقد تحاشيته تمامًا باقي اليوم، لم أسمح للصدفة أن تجمَع بيني وبينه، قدمت الكتّان والغلال، وتمنيت أن تأتى الأيام التالية بانفراجةٍ ما، أن يعود إلى سابق عهدِه معي، حاولت صرْف فكري إلى مقبرتي، دارِ أبديتي، كي تستحوذ عليّ وتلتهِم قلقي!

احتفظت بالابتسامة ذاتِها– التي انفرجت عنها شفتاي وأنا أتفقّد المقبرة صباحًا – إلى المساء، على سريري ويقظتي تَغلُب نومي وصلتُ لمرحلةٍ من الرضا والسرور عن حالها، لا أستطيع وصْف زهوتها، والألوان تجعل النقوش ناطقة، سيفرح رع،

وسيستقبِلني أوزوريس. تذكرت موكب جَدتي الفقير، أمّا أنا فَدُرّة التاج لي، وليس لسواي.

أغمضت عيني، ونومي يغلُب يقظتي، والشعور بالرضاء يكتسح حواسي، ودُرّة التاج بين جفنيَ راضية بما تَم فيها، مُمَنّية نفسي بالأحلام الجميلة، بموكب يضاهِي موكب الحاكم، بل يتفوق عليه، بكل بهائي وجلالتي، بشعب يقِف أسفل شرفتي يبتهِل لي كي يرضى عنه "رع"، بمحفتي المحمولة على أعناق خدَمي، تسير إلى مقبرتي، ألقِي أوامري بشأن أوضاع أثاثي الجنائزي، بهامتي التي أمرتُ النّقاشين بتصويرها بحجم صور الحاكم نفسِه، وتزيد.

لم تأتِ الأحلام الجميلة رغم ما وصلت إليه من رِضا، ما الذي أعاق قدومَها؟ لكن ما حدث غَيّر مساري، استيقظت على الغدر بي، الأحلام لا تراوِد قتيلة، وخنجر مجهول في جنبي، مَن قتلَني؟ أنا لا أستحِق القتل، أراهم وهُم يجرّدونني من الحُلِي، خاتم هويتي وجعراني الذهبي فقط هُمَا اللذانِ سلمَا من أيديهم، أراهم

وهُم يَصبون علىَّ القار اللزج، ويلفون علىَّ كتّانَهم الفقير غير المصبوغ كحَيّاتٍ قلِقة، أرقبهم وقد أهالوا الرمالَ بأقدامهم، وذهبوا.

كَم عامًا مضى بعد ذلك؟ بل كَم مِن الأعوام؟ لا أدري، ولكني أرقد في فناء الشيخ منذ يوميْن، أشرقت آمالي، وغربت مرتيْن، وها هي تشرق من جديد.

انفتح باب المنزل وخَرَجتْ إلى الفناء المرأة الممتلئة، قَدمَتْ الخادمة وراءها تحمل وعاء العجين الذي يشبِه بطن الحُبلى، أنزلت الوعاءَ أمام المرأة التي بدأت في صُنع الأرغفة بيدها الكبيرة، تُشَكلُ العجين كُرَاتٍ صغيرة، تتركها للشمس تبارِكها، فيزداد حجمها، أمّا الخادمة فقد قلبتْ سَلة عظامي لتجاور فوهة الفرن المشتعلة، اتسعت حركات الخادمة لتشمل المكانَ كله، كنت أرقبها قلِقة، تنبأتُ بما سوف تفعله، ألسنةُ النيران يتطاير شرارها مشيرةً إليّ، أغيثوني، لا أريد الاحتراق، لن أصير رمادًا، هل ثمة مرحلة أخرى، مرحلة الرماد، وإذا جاءت الرياح وقامت بتذريتِه، هل ستستمر معاناتي؟! هل هذا هو الفَناء! أغيثوني، إنّ

مكاني ليس هنا، إنه هناك، أنا صاحبة دُرّة التاج، أنا زوجة الـ "حاتي–عا"، أنا الـ "نبت – حاسوت"، أنا الأميرة ... أنا ... و ...

منى الشيمي

خريجة آثار مصرية من جامعة القاهرة. تعمل بالتدريس، وتكتب القصة والرواية، ولها مقالات متنوعة في الصحف المصرية والعربية. فازت بالعديد من الجوائز العربية.

وصلت روايتها "بحجم حبة عنب" للقائمة الطويلة في جائزة بوكر العربية عام 2015

صدرت الطبعة الأولى من رواية "لون هارب من قوس قزح" عام 2003.